

حيث تلتقي الأنهار
هربرت ميسن
ترجمة
أمل الجبورى
مراجعة
سعد الحسنى
المشروع القومي للترجمة
المجلس الأعلى للثقافة

المشروع القومى للترجمة

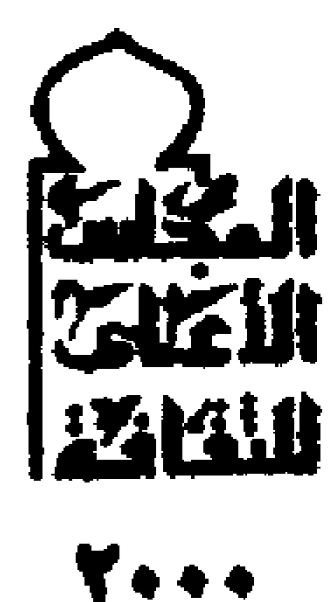
حيث تلتقى الأنهار

رواية

هربرت ميسن

ترجمة
أمل الجبورى

مراجعة
سعد الحسنى



٢٠٠٠

هذه ترجمة كاملة لكتاب

Where The Rivers Meet
By Herbert Mason

تصميم الغلاف / هشام نوار
الصورة الفوتوغرافية على الغلاف للشاعر بدر شاكر السياب

تمهيد

عرفت الشاعرة أمل الجبورى متجذره حتى النخاع فى بغدادها وعراقها الذى أحبته ، لكنى لم أعرفها مغتربة تبحث لى أوراقها المتناثرة لأجل المراجعه .

لم أعرف أن الغربة قد صقلت مواهبها لدرجة مثيرة أزاحت الستار عن قدرة فائقة فى الترجمة أضفت ، عليها قريحتها الشعرية فجاءت كلماتها المترجمة هادئة ومعبرة وأنيقة لم تبخل بكل مطواعيتها على لغة الكاتب الكبير هربرت ميسن .

إنى لست بصدد تقويم ترجمة رواية (حيث تلتقى الأنهار) ، لكنها كلمة حق أريد أن أقولها حين أشعر بالاعتزاز لعمل سيضيف مفردة شاعرية لعمل روائى هو خلاصة تجربة عاشها المؤلف هربرت ميسن ، وتقمصته وعاشته الشاعرة بكل حذافيرها ، حتى لكأنى حين قرأت النص العربى انصاع وراء مشاعر الاستطراد فى العربية التى أعجبنى سبكها وحلاوة ترتيبها وحذاقة التخلص من إرباكات نقل النص الإنكليزى إليها . وهكذا أقول أن هذا الجهد الرائع للرواية هى إضافة أخرى للروائى الأمريكى الذى أرقه (موت الحلاج) فآثر إلا أن يرحل مرةً أخرى فى الشرق الذى أحبه رغم اختلاف مناخه مع مناخ الكتاب النفسى . وكان مرشدنا فى ذلك لغة أمل الجبورى ، إذ ليس أفضل من أدبية كأمل يمكن أن تنقل المشاعر بصدق الإحساس المرهف ونقاء الصورة التى تؤطرها بموسيقى سفرها الذى لم ولن يغادرها لأنها مسكونة به .

عمل رائع حقاً .

سعد الحسنى

كلية الآداب جامعة بغداد

السياب في عيون أمريكية

يكاد يكون هذا العمل جزءاً من سيرة ذاتية للكاتب الامريكي هربرت ميسن اختار مفتاحها الأول رحلته إلى العالم العربي ، حيث لم يكن هو الكاتب الأول الذي عرف العرب من خلال المغرب بل سبقه إلى ذلك بول بولز وجماعة (Beat Generation) والتي كان أبرز كتابها كرواك وآلن غينسبرغ ولورنس وغيرهم من الذين اشتهروا برفضهن القيم السائدة آنذاك في المجتمع الامريكي ، وراحوا يبحثون عن خلاصهم ، فكانت طنجة المغرب هي الجنة التي افتقدوها في بلادهم .

إلا أن ميسن هو الاستثناء الوحيد من الكتاب الأمريكيين الذي تعرفَ في خلال مراكش على أناسها من العرب والبربر ، وكوّن رؤيته الصوفية من خلال الفترة التي أمضاها هناك ، وهو يختلف عن وليام بورروز صاحب رواية «الغذاء العاري» وجماعته الذين كونوا رؤاهم من خلال «تشتيت الحواس» والملذات الحسية التي عاشوها هناك والتي كانت هي «عين المدينة» التي أخطأوا في رؤيتهم لها كما يقول الروائي الطاهر بنجلون ، ويضيف «إن طنجة كانت تمنحهم الحشيش ووسائل الهروب بعيداً عن الواقع ، سرعان ما انتبهوا إلى أن هذا المكان لم يكن غير وهم في مجموعة أحلامهم السهلة ، وهو ليس حتى ذكرى بالنسبة لهم ، كان مجرد اسم يرن جيداً ،

غيـر أن هذا الاسم كـان خطأ والدليل عـلى ذلك أن طنجـة لاتوجـد فى نصوصهم» .

لكن ميسن الذى استبدل طنجة بمراكش جعلنا من خلال السرد المباشر والواضح بجمله ، حيث ابتعد عن ديكور البلاغة اللغوية التى تُجهض حبكة النص ، كذلك لغته الشعرية التى لم تُغادر نثره وبقيت قـائمة على امتداد الفصـول الأربعة تُطرز جـسد الرواية ، فهـو يصف جماليـة معـمار المدينة وكيفيـة تنازع الألوان فيما بينها وتشابكهـا بشكل بانورامى متناسق إلى الحد الذى كان الكاتب وكأنه يرسم لوحة فنية ، كل لون تناغم مع الحالة النفسية التى كانت قـد مرت بها ذاته المُعَـذَبَة . كانت المدينة تتمـر أى له من خلال الناس وانفعالاتهم:

(ساحر الأفاعى ، الدليل حسن ، حبه البرىء لثمر ، سطوة صاحب البلدة السيد محمود جـيربوف) وكل واحده من هؤلاء شكل خلاصاً لميسن الا أن الخلاص الأهم ، كـان تلك العزلة التى وفـرتها إصـابته البليـغة فى مراكش والتى كادت أن تقـضى على حياته لتمنحه بعد ذلك فـرصة النسيان والقفز على أحداث مسرح الألم الذى تركه خلفه عندما غادر أمريكا .

إن الاكتشاف والاستغراق عبر الكلمـات كان بمثابة «حشيشته الخاصة» أما اللغة العـربية التى طالب بتعلمهـا فى الكتاتيب ، فقد أصـبحت خليلته اللامرئيـة . والمجهول كـان شهوته التى يغـوص فيهـا كل ليلة ويموت من أجل أن لايَصلها دفعة واحدة ،ويقول : «انتهيت» .

سحر الشرق

لقـد تاقت نفس مـيـسن إلى الشـرق الذى تأملـه بحس من يريد أن

يكشف خفايا الأصوات .

فقد سحرته العربية التى عرفها مع الصبية وهو يردد معهم آيات القرآن دون أن يعى في أحيان كثيرة معنى ما يقول ، لكنه كان يهيم كمتصوف أذابه الوجد في بيان الإعجاز والسحر الذى يحمله جَرْس الكلمة نفسه .

كانت تجربة مثيرة وغامضة استمر تأثيرها فى دواخله حتى بات مأسوراً بهذه اللغة في أعمال التى كان الشرق أحد أهم محاورها .

إن إعادته صياغة «ملحمة كلكامش» شعراً أبقى شخوص الملحمة حية فى ضميره ،كذلك مفهوم الصداقة التى يتحول فيها الصديق إلى مرشد روحى دائم البحث عن الأزل وهذا ما تجسد فى لقاء ميسن بالسياب الذي ماثل علاقة كلكامش بأنكيدو .

ففى الفصول الأولى من هذا العمل فرى الشيخ الذى التقاه الكاتب عندما كان صغيرا يغامر بالإبحار وحيداً فى قاربه رغبة فى الاكتشاف ، كذلك زوجته السيدة «بولاند» هما نفس الشخصين في العمود السادس (٢٥٨) من الملحمة . . الشيخ أوتنابشتم وامرأته التى تقول لزوجها «لقد أتعب كلكامش نفسه وأضناها في الوصول إلينا ، فماذا عساك تعطيه عائداً إلى بلاده» .

فكانت هدية كلكامش بنتة الخلود التي شغلته عَنْ التفكير بمخاطر العودة . أما السيد بولاند فقد صنع نايا من القصب ليكون لحنه ونغماته الرفيق فى العودة إلى المنزل الذى ابتعد عنه ميسن كما لم يفعل ذلك من قبل .

«النبتة كانت معادل الخلود ، والناى هو الوجه الآخر للأنين الذى يبقى بعد ما يفنى الوجود» .

الجزء الأول

1

كان وجودى فى فـرنسا هو المفتاح الأول لمعرفتى بالعـالم العربى ، حيث الوقت سابق لأوانه ، وفى مرحلة كنت قد أمـضيت سنوات قليلة من جهلى فى تهيئة الأشياء لتلك الأنساق التى امتـزجت بالأعمال المؤقتة والمعرفة التى جاوزت أطرها التقليدية فى ذاك الزمن

لـم يكن لدىّ بيت خاص بى ولو أن باريس كانت شبيهة بالوطن .

أما المكان الذى كان ذا مـغزى يتعلق بمقدمتى ، وادنى معـرفة بالعالم العربى فهو المطعم الجزائرى المسمى " أحمد " والذى يقع خلف المنزل فى حى سان جيرمان .

كل فرد فى هذا المطعم كان يجلس إلى واحدة أو اثنين من الطاولات، الواحده قبـالة الأخرى ، تتبعثـر عليها الأطباق التى علق بهـا ماتبقى من الطعام وهو فى الغالب كان للتلاميذ البؤسـاء القادمين من شمال أفريقيا . هناك حيـث كنت أتناول عشـائى ، حصلت على وجـبة زهيدة الثـمن مع عصير التفاح بما يقـارب (٥٠) من الفرنكات القديمة أى ما يعادل (٦٥ سنتـاً) وعندما كنت أتحـدث مع الأصدقـاء الغرباء الموجـودين فى المطعم. طرأت لى فكرة الذهاب إلى المغرب حيث كان يتـعذر على السياح الذهاب

إلى الجـزائر بسبب الحـرب . وهكذا بدأت حيـاتى منذ تلك اللحظة كـما كنت أريد .

كانت رحلتى الأولى إلى العالم العـربى شيئاً خرافياً امـتد عبر السنين وكل ما أتذكره الآن ، أن هذه الرحلة كانت طويلة وشاقة ، صار إحساسي بالزمن متناثراً على نحوٍ متزايد دون تقسيمات اعتباطية .

أتذكر الآن سـفري بالقطارات وركوبي لعـربات رخيصـة الكلفة لأني مجبر على إدخار المال أثناء مروري بفرنسا وأسـبانيا ، حيثُ أسافر ساعات طوال دون أن أعرف أين أنا الآن ، حـتى أني غيـر متأكـد إلى أين ستكون وجهتي وكـان قد تعطل الباص الذي أخذته بين مدينة طولوس وكـاكاسون مما اضطرني للمـشي مسافـة لاتقل عن(١٠ - ١٢) كم حامـلاً حقيـبات خفـيفة احتـوت على بعض الملابس ومستلزمـات الحلاقة وكـتابين أو ثلاثة ومجموعـة أوراق للكتابة ، ومن ثم ركبت مع رجل كان يسافـر مع زوجته وأطفالهـما الثلاثة في سيـارة شوفرليت إلى برشلونه ، فأمـضيت الليلة في فندق متـواضع يضجّ بالعاهرات وزبائنهنّ الذين كانوا يدخلون ويخـرجون باضطراد طوال الليل .

وفي اليوم التالي سـرتُ لمسافة طويلة مستأنفـاً سفري في سلسلة من القطارات والباصات، مررت بأكشاك المـلابس والفواكه التي كانت موجودة على امتداد الطريق ، أفـرغت محتويات الحقـيبة إلى أخرى حملتـها معي على ظهري واشتريت زوجاً من السـراويل الزرقاء القطنية مع قميصٍ وقليلٍ من الخبز والبرتقال بقليل من النقود تاركاً حقيبتي ومحتوياتها (كي يمكنني التصـرف بها جزئيـاً فيمـا بعد) ، ثم تابعت السـير وقرص الشـمس كان يغطس حتى مـنتصفـه باتجاه الأفق ثم أكملت رحلتـي إلى جبل طارق في

سلسلة من الشاحنات ، في واحدة منها ، لم أستطع التحدث ، حتى اني لم أفهم في الوقت نفسه ماكان يدور مع سائقها الذي كان يماثل عمري أي فى الرابعة والعشرين مرتدياً ملابس شبه عسكرية خضراء غريبة وبالية حاملاً مسدساً فى حزامه ، بعد ذلك مررت على امتداد الساحل الأسبانى بمجاميع من الجنود يتحلقون على جوانب التلال وهم عاطلون رغم السلاح الذى كانوا مدججين به ، فى جبل طارق كنت أشعر وكأن البحر ينفجر ليندفع نحوى برياحه الطاهرة التى تبعث الحياة ، ثم وقفت لأتفحص حالتي ووضعى الاقتصادى ومامضى ، بعدها شخصت ببصرى نحو أفريقيا والساحل الآخر حيث اليخوت المبحرة والقوارب الشراعية وشباك صيد الأسماك الكبيرة والسفن البحرية الضخمة ومراكب قطر السفن التى كانت تغلق قناة العبور .

شاهدتُ العرب للمرة الأولى بعباءاتهم الطويلة وطرابيشهم وصنادلهم (أحذية خفيفة) والنساء المحجبات اللواتى لم يسمحن للغريب إلا برؤية أعينهن وكفوفهن فقط ، حتى هذه اللحظه كان التنبؤ بما سيحدث لاحقاً شيئاً مغيباً ، فى طنجه حدث مالم أتوقعه مباشرة بعد دخولى دائرة الكمارك المغربيه ، سؤلتُ بالإنكليزيه والعربية والفرنسية عن سبب وجودى هنا ثم وضحت لهم الأمر بأنى سائح لا أكثر وفجأة أخذ ضباط الكمارك حقيبة الظهر وأُخذتُ أنا من قبل ضابط آخر إلى صوب مكان حيثُ أُمرتُ بخلع ثيابى فى غرفةٍ خضراء صغيرة ، وحينما احتججت على هذا التصرف ، أخرج أحدهم مسدسه من جرابه مصوبا إياه نحوى . . كان هذا هو جوابهم وكانت هذه هى التجربة الأولى لى مع التهديد بالعنف المتعمد والرسمى، حتى أن الضابطين سخرا منى عندما بدأت أصرخ ببعض الكلمات العربية

التى تعلمـتها من الجـزائريين فى باريس ونظرا إلىّ بحذرٍ وهمـا يتمتـمان بالعربية حول كل شىء يلمحانه ، ثم شعرت بهراوة الضابط تخز ردفى مما جعلنى أندفع إلى الأمـام فاسحـاً مابين ساقىّ بينمـا سحب الآخر مـاسورة مسـدسه أعلى وأسـفل ظهرى وهمس بالفـرنسيـة لى بالبقـاء هادئاً ، أما الرجل الآخر ذو الهراوة فـقد حقق معى وهمس لرفيقـه وأعادها مرات أن أبقى صامتـاً ، فى نهاية المطاف امرانى بالوقوف ، أدارا ظهريهـما لى وهما يفتشان ملابسى ، وأثار أحدهم دهشتـى حينـما سألنـى بإنكليزية ضعيفة (أتملك أكثر من هذه النقود ؟) أجبته بالنفى وأنا أرتعش من البرد فأجاب ، ليس مالاً كثيراً بالنسبة لسائـح وخصوصاً سائح أمريكى ، قلت "لا أحتاج لمال كثـير" ، ثم سألنى . . «لابـد أن لديك أصدقاء كـثر هنا » . . أجبـته بالنفى ، قال : ارتدى ملابسك ، حيث أعادوها إلىّ مع أغراضى التى كانا يتفحصـانها ، أدارا لى ظهريهما مرة أخرى بشكل رسمى جـاف فيما كنت أرتدى ملابسى ، حقاً كنتُ أرتجف وهما يرافـقانى خارج الغرفة مارين بى على سواح عرب وأجانب حدقوا بى ، ثم سلمانى أشيائى تاركين إياى فى الشارع دونما أىّ إيضاح ، لم أقم حتى بتـفحص محتويات الحقيـبه فالأمر فى تلك اللحظات لم يكن بذى أهميـه بالنسبة لى ، حتى سـاعتى اليدوية الرخيصة التى انتزعها أحدهم منى عنوةً دون أن يعيدها ، لـم تشكل بالنسبة لى خسارة مهمة .

على أية حال ، لم يزل النهـار مشرقـاً فى الخارج ، حقاً كـان يوماً دون نهايةٍ أو حـد ، هكذا هى مشاعـرى وأنا أرفع بصرى صوب سـقوف مقـشطة وبنايات بيضاء منهـارة كانت تتجـه نحو سمـاء زرقاء مخـضرة . وخمنت أن الوقت مازال يتـراوح مابين الرابعة أو الخامسة عـصراً . سرتُ

فـي الطريق باتجـاه كلمة (صـرافة) حـيث استبـدلت صكوك المسـافرين (ترافل جيـك) التى كانت معـى ببعض النقود المـغربية . طلبـتُ من أمين الصندوق أن يدلنى إلى موقف البـاص الذاهب إلى الجنوب ، سألنى : إلى مراكش ؟ أجبته : نعم ، مستحضراً معرفتى البسيطه بالأسماء والأماكن فى المغرب والتى تعلمتها من خـلال إقامتى فى باريس ، أخرج الرجل جسده من الشباك مـشيراً لى باتجاه اليـسار وسألنى إن كنت بحالة جـيدة ، حيث كنت بالكاد أستطيع حمل يدى بثـبات . وبالطبع مازلتُ أؤمن أن كل شيء ممكن من وجهة النظر الأمريكية ، وفى مـحطة الباص كان هناك حشداً من الباصات التى تنظم مقدماتها إلى الداخل وكأنهـا عقدة متضخمة ، ويكتظ الباص بالناس المتزاحمين داخله ، ولا يبـدو أن هناك راكباً يحمل تذكرة ، كذلك لم أسـتطع أن أقرأ أية عـلامة على واجهـة الباص والتى تشـير إلى وجهة الأماكن التى سيصل اليها ، لم تكن هناك محطة ، إنها فقط باصات وحشد من مئـات الناس الذين كنت واحداً منهم ولكنى كنت أختلف عنهم بلباسى الذى لـم يكن الجـلابية أو الطربوش ، وكنت قد أطلقت لحـيتى ، كذلك مسحتي الأجنبية ، كل ذلك جعل الآخرون يحدقون بى كلما اقتربوا منى . تنقلت من باص إلى آخـر متدافعـاً عبر الزحـام متأمـلاً أن تظهر أية إشارة أو دلالة مكتوبة بالفرنسية أو الإنكليزية فقد تأتى السماء بمعجزة .

في غمرة الزحام ، فجأة واجهت صبـياً لـم يتجاوز العاشرة أو الحادية عشرة من عمره كان الناس يتجنبـونه حيث كان يعاني من مرض (السقوه) ، عيناه مغلقتان من كافة الجوانب بقشرة جافة تتساقط من جلده ، كان الناس يتهـامسـون بشكل إيقاعي عن الصـبي ويشيـحون بأعينهم عـنه ، مد يده المتوسلة نحوي ثم تحلق الآخرون حولنا في دائرة صغيرة وصفّروا «بخشيش»

طالبين مني إعطاءه بعض النقود لكي يروا إذا كنت سألمس يده أو أدعه يلمس يدي وتحسست سروالي فوجدت ورقة نقديه ودون النظر إلى المبلغ أعطيتها له ، كان يحاول تحريك شفته محاولاً الكلام فاختطف الورقة ماساً أصابعي بجلده (المتقرح) وحينما تلامسنا توقف الحاضرون عن الصفير ، وأسرع الصبيّ من الناس الذين تفرقوا لأجد نفسي محشوراً في الوسط وقد أحاطو بي من كل الجهات ، حتى لكأني في حلم حقاً ودون أن تتحقق رغبتي بالحصول على إشارة للمكان الذي كنت أنوي السفر إليه وجدت نفسي محشوراً في باص في مقعد قرب النافذة تجاورني امرأة محجبة مع طفلها ، وسألت بالفرنسية فيما لو كان الباص يأخذني إلى الرباط ، فما كان منها إلا أن أشاحت بوجهها عني دون إجابة ، ثم سمعت صوتاً قريباً مني "نعم أيها السيد .. إلى الرباط " وحين استدرت خلفي لم أتعرف على ذلك الوجه الذي تحدث قبل قليل ، لم يكن أمامي من خيار سوى الاسترخاء والذهاب حيث يذهب الجميع . وها قد توقف الباص ، ليندفع الكل بحركة إلى الخلف ثم إلى الأمام مبتعدين عن عش الباصات على امتداد الشارع المؤدي إلى المرفأ ، وقام صبيّ بجمع التذاكر من نافذة إلى أخرى في الوقت الذي كنت فيه لا أمتلك تذكرةً ولا أعرف حتى كيفية اقتنائها . فجأة صرخ الصبي في وجهي بالعربية" النقود .. النقود" ، ثم جاء صوت آخر من الخلف : "هي خمسة دراهم فقط " ثم جاء صوت آخر من الخلَف . لم تكن معي إلا ورقة نقدية كبيرة الفئة فسلمتها للصبي عبر النافذة ؛ حيث شخصت عينا الطفل الذي كان بجانبي إلي مثلما فعلت أمه من خلال حافة خمارها حين ظنت أني أنظر جانباً .

2

وبعد عناء طويل وصل البـاص إلى الرباط حيث واتحد الوقت والمســافة ، إتحدّتا بانســجام وكآبة مـروعين ، ولم تكن رتابة الفجر هذه سـوى إيقاع دندنة الراكبين . كانت توقفات الباص دون أي مبـرر كما يبدو في فضاءات صحراوية دون أى مبرر كما يبدو من أجل إنزال بعض الراكبين ودون سبب واضح أيضاً ، في الوقت الذي لم نكن نبصـر البيوت ولا القرى لكننا كنا نتخـيلها في الأفاق الواضحه وكأنها حقاً تريد الاختـباء ، في الرباط كانت المحطة أكثر تنظيماً ، فهناك أوقات مـحددة بين رحيل باص وآخر ، أكـشاك التذاكر مـتوفرة ، ورغم تأخر الوقت فـالحشود والإرباك بقـيا على حالـهما ، بعـدها تجولت في المرافق العامـة حيث حصلت على بعض الخـبز والجبن والمشروبات الغـازية (من أحد الأكشاك) ثـم قطعت تذكرةً للمحطة القادمـة (الدار البيضاء) ووصلـت عبر الزحام إلى داخل الباص .

إن الذهاب إلى الدارالبيضاء يعد أمراً مـشوقاً . فقد توقف الباص في منتصف الطريق مـفرغاً نصف راكبـيه أو أكثر ، وتوقف السـائق أيضاً في موضع (مجهول) تاركاً الباص أمام أعين الجـميع مختفياً في الصحراء ، لم تكن هناك أية إشارة للوقت ثم خرج بعض الركاب ليتبولوا إلا أن النساء

بقين في الباص وما تبقى كان يغط في النوم ، تخطيت الراكب النائم إلى جانبي وهو رجل كبير كان رأسه متدلياً إلى الأمام يوازي أحضانه ، واندفعت إلى الأمام عبر أولئك الجالسين في الممر ثم ذهبت خارج الباص . . لم يكن الظلام حالكاً رغم أن الوقت كان ليلاً ولم تكن السماء معتمة كتلك العتمة السوداء المزرقة التي عرفتها منذ زمن الطفولة في الساحل الشرقي لميرلاند ولكنه لون أزرق مخضر فاتح مضيء لا ينتمي إلى أول اليوم ولا آخره ، واستطال الوقت بين الغسق والليل ، في هدأة تلك اللحظة سال عطر الخزامى من الورد مثل ذاكرة ضعيفة لكنها كانت من القوة ما يمكنها البقاء على قيد الحياة ، كانت الكثبان الرملية الناعمة تميل إلى اللون البرتقالي المصفر ، أما منظر الأرض التي أحتوت بعض الشجيرات الصغيرة وبشكل منسق منظم استحالت إلى لون زيتي أخضر فيما كان البحر في الجهة اليمنى غير المرئية من الطريق وإلى اليسار حافة الصحراء .

إنها المرة الأولى التي أرى فيها نفسي مضمحلاً في البون الشاسع بين الاثنين ، حيث سرت في الصحراء بالاتجاه المعاكس لمسار السائق ، مشيت لمسافة مائة يارده حيث أنحدرت الرمال ولم أعد أرى الطريق ولا الباص ، تبولت في ما اعتقدته مكاناً خالياً تماماً إلا من قطيع صغير للجمال حوالي خمسة وهي تتحرك سوية لكي تعدو القمة القريبة وأنا أتوجه نحو القطيع لأتفحصه عن قرب ، هجم علي رجلان ملثمان يرتديان الجلابية على ظهريَ فرسين مما جعلني أشيح بوجهي وأعود راكضاً للخلف وأنظر خلف منكبي قبل أن أنحدر عبر كثيب عائداً إلى الشارع ، وتوقف الرجلان وهما يتفحصاني ، رفع أحدهم ذراعه اليمنى في حركة هستيرية

ملوحاً لي بالابتعاد عن دربهم ، امتثلت له وعدت إلى الباص ، فوجدت مقعدي وحقيبتي في عهدة الرجل الشيخ الذي كان قد صحا من النوم وتحدث معي بالعربية . في الوقت الذي لم يكن أحدهم يعرف الفرنسية لأوضح له الأمر ، بقيت ألتزم الصمت مثلي مثل الآخرين والذين كانوا قرابة خمسين مسافراً يخلدون للراحة . أسلمت نفسي للنوم وصحوت فجأةً حين استدار السائق في حركة ارتجاجيه وتغير الضوء التدريجي ثم عاد الباص إلى شكله الفوضوي . في الدارالبيضاء كانت هناك المحطة وبائعي التذاكر الذين يتحدثون الفرنسية كما هو حالهم في الرباط ، حيث ذكر أحدهم أن المسافه الى مراكش في حدود (٢٠٠) كم ، وفي الوقت الذي كان أحد الباصات يهم بالرحيل أسدى لي أحدهم النصح بتجنب السفر في منتصف النهار خوفا من أن تجففني الشمس لذا عليَّ أن أستقل الباص في الحال ، وحصلت على زجاجة من الماء وبرتقالتين وقليل من الخبز وقطعة حلوى ، كان الباص ممتلئاً تماماً بالمسافرين .

إن الباصات تشعرني بالقرف سواءاً كنت واقفاً أم جالساً فالأمر سيان .

إنها مسألة الذوبان في استجواب حاسم لمعنى رحلتي هذه . . إنها بصورة عامة حكمة الإنسان وعلى وجه الخصوص عجزي عن إدراك ذلك . على أية حال ، وضعت طعامي في حقيبتي وبقيت يلفني الصمت محشوراً بين رجل وامرأتين واقف في منتصف ممر الباص ثم بعد ذلك أدارت المرأتان ظهريهما . كانت أشجار الزيتون تتناثر على امتداد الطريق الريفي والتراب البرتقالي يحمرّ كلون الآجر القرميدي ونحن نوغل في الأعماق . حيث الممر يتخلص من ركابه ببطء ، ففي كل وقفة كانوا

هؤلاء ينطلقون عبر الحقول باتجاه البيوت الطينية الصغيرة ، وسفوح التلال أبقت على طيور اللقالق أما الصبية فكانوا يقفون فوق جسر منتصب على جداول تكاد تكون خاوية ، حاملين الأسماك الصغيرة المتدلية من خيوط السنارات ، وفوق جذوع الأشجار النحيفة وعلى امتداد الطريق تقف نساء مسنات يلوحن بالقواقع للحافلات المارة ، حين وصل الباص إلى الجبال التي تتحلى بعض قممها بالجليد وكأنها عناقيد غيم ترفرف فوق الأرض ، بدت التربة وكأنها شرائح لجسد مخضب بلون الحناء الغامق ، وجدت لي مكانا ونمت كالحالم ، وعندما استيقظت لم أر غير ظلمات مليئة بالعتمة والشحوب ، مترقرقةٍ كالحرارة التي بدأت تأخذ بالارتفاع والجو الذي بدأ ينذر بالظمأ .

سار الباص عبر شارع مراكش الرئيسي الذي يحفل بالأشجار التي انتصبت على جانبيه ماراً ببوابات المدينة عبر مداخل الحدائق الى الفنادق الضخمه والقصور ذات النافورات والمسابح المحاطة بالنخيل . بعدها توقف الباص في ساحة كبيرة أمام المدينة القديمة المنبسطة ثم أنزل المسافرين ، بعد ذلك ، فجأةً ، أبصرتُ مجموعةً من أفراد الشرطة الذين ارتدوا زيهم الرسمي الذي لا يتسم بالذوق ، دون أن يعملوا شيئاً . كان نوعاً من الاستعراض الذي أعقبه مشاهدتي لأحد الباعة الذي يحمل مجموعة من القبعات المحاكة البيضاء فاشتريت واحدة منها وانحنيت للبائع وهو يحاول أن يضعها فوق رأسي والتى بدت مغايرة تماماً للون ملابسي التي عبث بها سخام غبارمئات الكيلومترات من هذا الطريق .

3

خلت الساحة من المارة الذين هربوا من لفح الشمس وحرارتها وأوصدت أكشاك الملابس أبوابهـا بالمزلاج والبعض الآخر وضع عليها الخيـام أما باعة الماء فقد كانوا يقـدمون بإلحاح مالديهم من ماء فى علب معدنية قـذرة فما كان من السواح والمارة إلا تجاهلهم .

ثم انتقلت أنا لأتابع مشاهدة سـاحر الأفاعى وهو يطوى بمهارة وحذر شديدين (كوبـرا) صغيره معـيداً إياها إلى سلتها ووضع الغطـاء عليها ، على مرأى عـدد ضئيـل من الأطفال الذين أصابهم الذهـول وهم يطالعون ذلك .

ثم رمى الرجل بحفنة يدٍ مملوءة بالحبوب لحيوان النمس* المربوط فى القفص سار بعدها هذا الحيوان بخطـوة مسرعة إلى الداخل ليوصد الرجل بابه بالمزلاج .

برم الساحـر حصيره وربط نهـايته وجذب كـرسيه إلى حزام خـصره بعدهـا وضع القفص والسله والحـصير تحـت ذراعيه وفى يده كـذلك على

* النمس : حيوان صغير له ذيل طويل ، يعرف بالذكاء الذى يمكنه من القضاء على الأفاعى

كتفيه بالتعاقب ومن ثم سار إلى مـدخل المدينه . إما أنا فقد أبصرت علامة تشير إلي وجود فندق فى الساحة التى تقع فـيها بناية رخاميه بلون الأبيض والأسود لكننى قررت متابعة الباعة والمهرجين بعيداً عن ذلك المكان ، وإلى مدخل المدينة ، بدأ الفندق للوهلة الأولى من طراز الدرجة الأولى .

أما الأزقـه فقد تحـولت وبسرعـة كبيـره إلى ممرات لا تكاد تكفى إلا لاثنين أو ثلاثة من المارة الذين يسـيرونَ جـنباً إلى جنب أو ربما يكاد يتـسع لعربة صـغيـرة جداً تمر خـلاله ، إن تشابه الأزقـة يؤدى أحيانا إلـى اتساع الفضاءات وكـذلك السـاحات التى تنتصب فيهـا النافورات ، ثم تعود هذه الأزقة بالانحـسار مـرة أخرى حـيث قادتنى مرتيـن إلى نهايات مقـفلة مما اضطرنى ذلك إلى العودة أو اتخاذ مسار آخر .

لقد أغلقت جمـيع المخازن التى كانت مفتـوحة وذلك لتناول الطعام واخذ قسطاً من الراحه لأصحابها والعاملين فيها . لمحت رجلاً يجلس على الأرض وهو يقوم بغزل ضفائر الستائر وقـفا الكراسى وقد راح يمضغ بيضة مسلوقة بينما كان إبريق الشاى يغلى فوق موقد نفطى بالقرب منه ، التقت عينانا ولكن دون أى تعليق ، وفوق مسطبة متوسطة الارتفاع شاهدت صبياً يقشر برتقـالة متحدثاً الى بالعـربية كاشفاً عن بعض أسـنانه المفقودة ، ثم توقفت متـفحصاً صبياً آخـر يضع وتداً عند قدميه وشفرة الحـلاقه تتوسط أصبعى قدمه اليمنى بينما كـان ينشر بواسطة القدم الأخرى الوتد المتحرك ، ابتسمت دون لمس أى شىء ثم سرت مسـرعاً لأتناول شيئاً من الماء الدافىء الذى كـان مـعى ولأعـد مـاتبـقى لدى من طعـام . . وهـو بالطبع . . "البرتقالة" ، كنت حقاً قـد أضعت دربى ولكن الأمر لم يعد يشكل لى

أية أهمية . . كل مـا يهمني الآن هو الهرب من دوامة التـفكير ، هذه التي كانت تشلني ، أخذت أسـير ببطء منحنى الثقة التي استعـدتها للتوّ كذلك الحيرة من الذي سيحصل بعد ذلك .

كان الضوء يمـلأ الأزقة الواسعة عندما كنت أمـرّ في كل واحدة منها حتـى خف الضغط الذي كـان قد شـدّ دماغي عندمـا كنت حاسـر الرأس وأصبح أقل مما كـان عليه حين ارتديت القـبعة البـيضاء خـلال تجوالي في الساحة خارج هذا المكان ثم أخذني الشارع الواسع لأحدق ببالات كبيرة من الأقمشـة الصفراء القديمـة المصبوغة حديثـاً وهي تحوم متلألئـة تحت سماء زرقاء صافيـة ، إن تواءم اللونين الأصفر والأزرق معاً وكأنهـما من جوهر واحد لكنهما من صبغتين مغايرتين.

حدقت لبرهة في اللونين المميزين مدركـاً رسالة غريبة ، مجهولة دون أن يكتبها أحد وفي ذات الوقت فر خيالي بعيداً دون أن أعي ذلك ، تمنيت لو أن الأصفر والأزرق ينفصـلان بنغم متناسق ليعزفا معـاً بصمتٍ لحناً غير متوقع وهما يتعانقان بحرارة .

إن هذا التأمـل سبب لي شيـئاً من التـعب فسرت حـتى وصلت إلى ساحة اصطفّت فيها الحافلات والسيارات الصغيرة الفارغة ثم جلست بمحاذاة حائط بناية مسنداً رأسي على ذراعي وركبـتي لأمنح عيني شيئاً من الظل ، أما الآخـرون فقد كانوا يأخـذون قسطاً من الراحة على امتـداد الجدران في مسارات الظل الضيقة دون حراك ، نائمين أو يكادون يكونون كذلك ، لقد كنت حقاً أمـاثلهم في اللون بعدما لوحتني الشـمس خلال الرحلة الطويلة إلى أسبانيا . استـيقظ الجميع فجأةً من إغفاءةِ هذه الراحـة المؤقتة ، حينما

مرت إحدى السيارات فى الساحة دون أن تجد لها مكانا ، قام سائقها بحركة بهلوانية أزعجت الآخرين واضطرتهم للتحديق بوجهه ، ووقف أحد الرجال متمايلاً ذات اليمين وذات الشمال وهو يحاول اللحاق بتلك السيارة .

منذ أن غادرت طنجة التى كانت تعج بالعديد من السكارى الذين يصطفون فى الشوارع المواجهة للبحر لم أرَ ثمل كهذا الذى اقترب ليلمس السيارة ويركلها بقبضته وقدمه مما أدى إلى تشويه أبوابها ، ثم جاء سائقها لاعناً ومهدداً إياه بالخروج لكى يكف عن عمله ، وفجأةً انحنى الرجل الثمل بالخمرة وهو يتأرجح بالحجر الثقيل الذى رفعه بكلتا يديه ليرميه إلى الجانب الآخر من الشارع ، أسرع السائق تاركاً الساحة ، ثم وقف الرجل ينظر حوله مهدداً الجميع حيث أن الرؤية لم تكن واضحة أمامه (وكأننى كنت أقرأ أفكار الرجل المتلاطمة متنبأ بالذى يمكن أن يحدث) لكن السكون والجمود أصابا بصرى حتى لم أعد قادراً على الحراك وإذا بالصخرة تتجه صوبى بشكل عنيف شعرت وكأنها تشج رأسى فى زاوية قائمة ثم سقطت مغشياً علىّ .

الجزء الثانى

-4-

عندما استعدت وعيى فيما بعد . لم أكن أعرف كم مر من الوقت لكل ذلك ، فالرؤية لم تتضح لدىّ ، إلا أنى كنت أستطيع أن ألمح شخصاً يجلس بجانبى . شيئاً فشيئاً أدركت حالتى جيد . كنت ملقى على سرير فى غرفة مغلقة ، استطعت أن أرى الأشجار وأشم ع ير الزهور ، سار هذا الرجل نحوى متحدثاً إلىّ بلكنة إنكليزية (هل يؤلمك رأسك كثيراً ؟) أجبته ، " نعم .. أننى لا أقدر على رؤية الأشياء بوضوح " .. قال لى : "حقاً أننى آسف جداً لما حصل ، فالناس فى المدينة يحترمون الـ وار ، لكن هذا الرجل تصرف بشكل مغاير تماماً " .

ثم سألت : « أين أنا الآن » ؟.. أجابنى .. فى منزل السيد محمود جيربوف وقاطعته.. «وهو أنت؟» .. فقال لى .. « لا .. أنا الدليل حسن " .. أجابنى بشكل غريب ، " لماذا جىء بى إلى هنا إذن ؟ » قلت له ، فأكمل ، " لقد شعر السيد جيربوف بالخزى لنا نحن البربر بسبب سلوك هذا الرجل فأحب أن يقوم بترضية أو يصلح الموقف ويجعلك ضيفه ، إنه رجل مهم فى هذه البلدة » . قلت له : " أشكره بالنيابة عنى . فأنا ممتن لما فعله لكنى أشعر بأننى بخير الآن بحيث أستطيع تدبير أمرى» .

ضحك الرجل ، ثم أدركت بعدها أن الآخرين يعتقدون أننى عاجز عن فعل أى شىء حتى لو كان اعتقادى كذلك .

وعندما رفعت يدي لأتحسس وجهي أدركت أن رأسي مازال معصوباً ، شعرت وكأنى أصبحت عالة على أصدقاء أجهلهم ، لم أكن أميز الأشخاص ، وليس من شىء واضح ، غير أنى أكاد أجزم بأن ما حدث لا يثير الخوف إلى هذا الحد

كنت مطمئناً لأنى مازلت فى السرير ترافقنى ضحكات حسن الذى كان قربى . . هذه الضحكات الجديرة حقا بالشفقة ، على أية حال لم يكن لى أى خيار غير ذلك ، أخبرنى حسن بأنه سيقوم بمرافقتى بجولة فى المدينة ولكن حالما يتحسن حالى بالطبع . أجبته : "شكراً فأنا معتاد أن أكون وحدى " . ثم قاطعنى " لا أحد يستطيع معرفة المدينة بدون دليل " لقد بدا لى أكثر واقعية من أن يكون مهدداً أو متوعداً إياى . كلما هممت بالحركة أحسست بألم ووجع قاسيين فى رأسى ، ثم قاطعنى حسن بسؤاله " لماذا جئتُ إلى هنا "؟ . وحين بقيت صامتاً قال : " الله وحده يعرف السبب " فأخبرته بأنى لا أعرف . . ثم استدرك قائلاً هل أنت مسيحى ؟ " لم أتعود الإهتمام بشؤون الدين . أجبت بواقعية وبراءة شديدتين تخلو من حذلقة الملحدين ، وفى الوقت الذى كنت أشعر كم أنا ساذج كان هو (أى حسن) كثير الشك " الله وحده يعرف لماذا أنت هنا " . قلت له : " إن إنكليزيتك ممتازة " . فشكرنى وأخبرنى أنه تعلم ذلك من الناس الذين يرافقهم فى تجوالهم كدليل سياحى . واستفسرت منه: " أكانوا أميركان ؟ " فردّ . " نعم . . وهناك إنكليز أيضاً " . قلت له " أرغب تعلمى لغتكم

" فسألنى " العربية أم البربرية ؟" فأجبت مسرعاً "العربية " التى ألفت نبراتها من متحدثيها عبر طريق السفر ، قال .. " إننى أعرف هنا سيداً يعلم الصبية دروس العربية والقرآن .. سأطلب منه أن يعلمك " ، سألت بدهشة : " الأطفال ؟" فردّ .. " إن ذلك هو الطريق الأمثل لتعلمك اللغة فيجب أن تنصت وتحفظ وتردد كالأطفال .. وهذا سوف يساعدك " .

أثار هذا الأمر الشك لدى ، فيما عاد رأسى يؤلمنى مرة أخرى . طلبتُ منه أن يعطينى حبوب الأسبرين من حقيبة الظهر الثانية . قال .. "كل شيء يخصك محفوظ هنا فلا داعى للقلق .. لقد أمر السيد جيربوف بشيء يفيدك ، أنه علاج شديد الفعالية يجعلك تستسلم للنوم " .. فسألته " ماذا ؟" .. ، " الأعشاب " .. رد حسن .. واسترسل .. " إنه يثق كثيراً بأحد باعة الأعشاب هنا ، إذاً سأحاول " .. قلت له ، وذكر لى أن الدواء له طعم لذيذ يحضّر كالشاى ويُشرب بعد ذلك .

حينما تحرك حسن من الغرفة رأيت شخصاً آخر عبر الباب .. ربما كانت إمرأه ترتدى جلابية ذات لون زمردى حيث لم يكن اللون واضحاً لى ، ثم قدم لى الشخص الآخر قدحاً من الشاى فامتدت كف صغيرة نحوى فى تلك اللحظة ، لم أستطع تبين وجهها رغم أن وجه الشخص الذى قدم لى الشاى كان يختفى تحت اللثام ، احتسيت الشاى ببطء وبدأت أفقد الإحساس بالأشياء التى حولى ، اندفعت ذاكرتى نحو غرفة تركتها فى شارع " فيسكونتى " الضيق فى باريس.

5

لم تكن الرؤية واضحة أمامى فيمـا كنت أسير مع حسن صوب المدينة فقد قلّ وزنى وفـقدت ساقى قوتها لذلك أحـاول أن أمسك الدليل بذراعى ونحن نحث الخطى ، مـررنا بأشيـاء عـديدة ورغم سيـرنا البطىء إلا أننا توقفنا مراراً نحتسى المشروبات الغازية بسبب الجفاف وشدة الحر ، ثم راح حسـن يخـبرنى حكايات غير واضـحة ونحن نجوب الطريق ، حـيث تحدث عن معلم يعـرفه سارداً علىّ حقـائق بديهية عن رجل كبـير وأدركت أن لا أحد يعـرف هذا الرجل وإنما هى استـحضـارات الكثيرين عن صـور المعلم وربما كنت خاطئاً فى تصورى هذا .

قال حسن . . " أخبرنـى المعلم ذات مرة . . بأننا نعيش فى عالم من الإشارات ويجب أن نتـعلم قراءتها . . حـيث لم تكن تهمه تفـاصيل هذه الإشـارات عدا عن كونها ذات معنى " .

وتساءلت فى سرى . . " أية إشارات ؟ "

بعد ذلك قابلت بائع الأعشاب المطمئن فى مخزنه الصغير الذى لايكاد يتسع إلا لشخص واحد ، كان الرجل ، الذى يفتقد إحدى عينيه ، يحتفظ بالأعشـاب بزجاجات صغـيرة وحاويات طينيـة متراصة على رفـوف ملأت الجدران .

تحـدث الرجل بصـــوت أجش مع " حـسن" بالبـــربرية . . ثم بدا الرجلان صارمين رغم أن البائع الذى اسمه آسام ضحك وهو يمسك بيدى فى الاستقـبال والتوديع . . وذلك ما يدل على أن أعـشابه جيدة فـمريضه

الشاب كان يسير في المدينة معافى . دعانى الرجل " بن توماس " بعد أن سأل عن اسم والدى الذى مات قبل خمس سنوات وذكر لى أن عنده عشب للنشاط الجنسى وشكرت الرجل رافضاً العشب المذكور فى الوقت الحالى .

ثم انطلقنا فى جولتنا لنمرّ بالعديد والمزيد من اللفائف القطنية الملونة المتدلية من فوق الأسلاك بين البنايات وتسمرت عيناى على لفة خضراء داكنة كانت تحور السماء ألأرجوانية فى ألفة بهية ، أشرتُ لصاحبى من أن هذه اللفائف ماهى إلا عباره عن مجموعة من إشارات دون معنى ، ورسائل مبهمة . . لكن حسن لم ينطق بأية كلمة .

ذات يوم رافقت حسن إلى حديقة فى فناء بيت مغلق وبدأ بذكر أسماء الزهور مما جعلنى أميز ألوانها بشكل واضح فبدأت ألألوان البرتقالية ، الصفراء وألأحمر الداكن ، كذلك ألأزرق ، تكبر حجماً وتأخذ شكل أوراق ألأشجار وجذوعها الممتدة على خلفية من الطين البرتقالى اللون ، تماماً كما كانت كذلك الطرقات وهى تكتسى بالآجر الأبيض والأزرق .

جلسنا صامتين فوق مصطبة حجرية فى الحديقة .

ثم نظرت إلى كل ما تمكنت عيناى من رؤيته وفى وقت لا يحده زمن . كانت هناك أيضاً نافورة صغيره وسط الحديقة ، يأخذ ارتفاع مرشتها حوالى ٤-٥ قدم ، أخبرنى حسن أن ماءها يأتى من أعماق الأرض .

وبعد فترة حينما عدنا إلى ذلك المكان ، وجدنا جلد ثعبان قرب أحجار النافورة . . قال حسن معلقاً . . " إن هذا منظر مألوف فى المدينة لكثرة الأفاعى والتى تكون فى الغالب غير مؤذية أو سامة . . ولا تهدد أحداً بأى شكل من الأشكال .

6

بادرنى السيد محمود جيربوف بالسؤال .. " هل كان حسن مرافقا جيدا لك ؟" (حيث زارنى مضيفى مرات عده قبل أن أستعيد كامل وعيى وأحياناً عندما كنت أستعيد الوعى لفترة قصيرة ، لكن زيارته الأولى كانت لشرب الشاى بعد أن عادت الرؤية لى بشكل واضح).

ثم سرحت أفكارى فى هيئة ماكان يرتدى مضيفى من ملابس غير متناسقة تتألف من سروال أبيض وقميص ورباط وسترة " تويد" إنكليزية ، كان لباسه متناقضاً مع ما ارتديته أنا وكذلك حسن وبقية الناس فى الشارع الذين ارتدوا الجلابية والصنادل .. ولقد أدهشنى ذلك التناقض .

كان هو وحسن يتمتعان ببشرة بيضاء مثل بشرتى رغم أن بشرته كانت تميل إلى الخضرة بينما هى عاجية اللون لدى ، وشعره كان قصيراً ومتجعداً أما شعرى ولحيتى فقد ازدادا طولاً وتقصفاً.

كان الرجل فى منتصف الأربعين أى له ضعف عمرى ، لقد جعلنى أشعر نحوه بامتنان كبير وعبرت لحسن عن ذلك .

وتابع وهويقول لى : " أنت فى بيتك ، لقد كنا قلقين بشأنك ،

والرجال الذين أتوا بك إلى هنا ظنـوا أنك ميتٌ واحتاروا مـاذا يفعلون بك ولكنك ماتزال حياً كما ترى " . . وضحك مثلما فعل صاحب الأعشاب .

أجبته . . " نعم . . بكل امـتنان " ، قاطعنى قائلاً . . " لاداعى لهذا القول ولا تقل شكراً إلا لله ، فما فعلناه أمر طبيعى " .

وسألته " هل تعرف من رمى الحجر ؟" حدق الرجل فىّ لبضع دقائق ثم قال . . " كلا . . لا أحـد ، ونحن نعتذر . " حقاً لقـد أحرجنى جوابه حتى تلعـثمت ثم سـألته : " كم من الوقت مـضى علىّ وأنا هنا ؟ " ليس بالكثير ولا تبالى " . أسئلة كهذه كـانت ممنوعة كما يبدو وتساءل الرجـل " هل لديك رغبات أو حاجات تود لو أنها تتحقق " قلت " كلا فكل شيء جـيد وممتـاز" ،فـأكـمل " قال لى حـسن أنك تريد تعلـم العربيـة " "نعم" ، هكذا أجبت . . فأردف قائلاً . . " إذن يمكن ترتيب الأمر لك " .

كنت منفعلاً ، لذلك تحدثت بصـراحة ، قال الرجل : " من الطبيعى ذلك" ، " هل أحببت الحديقة ؟" " كثيراً " . . أجبته حيث كانت غرفة نومى تطل على الحـديقة الصـغرى المجـاورة التى وضع فيـها كـرسى من الخوص ومنضدة شاى نحاسية قدم لى فيها الطعام خادم يدعى حبيب .

كانت العصـافير تطير متنقـلةً فوق الجدران وهى تستقـبل الضيوف ثم تعود لتنام فى ألأشجار . واستمر فى كلامه " آمل أن تجد هنا مكاناً للقراءة والكتابة ودراسة العربية أو ما ترغب بعمله " . وأكدت له بعد ذلك أن كل شيء على ما يرام . بـعدها جلب حبـيب لى شاى النعناع وقطعـة عسل صغيرة وكيك باللوز .

كنت أسمع الطيور وهى تزقزق بانفعال على الأشجار لكنها صمتت ونحن نرتشف الشاى ، لم يوجه لى محمود أية أسئلة ظناً منه أنى مواطن أمريكى عادى أو هكذا بدوت له . كان الشاى معداً بشكل جيد لكنه مازل غير مناسب لى وسألته بارتباك : " هل أنت رجل أعمال؟ " . وضحك مضيفى قائلاً . . " نعم عندى عدة أعمال ومنها صادرات إلى أوربا وأمريكا " . " إذن أنت كثير السفر ؟ " " نعم . . زرت نيويورك وشيكاغو ولوس أنجلس ، وعندى الكثير من ألأصدقاء فى كل مكان كذلك فى العمل هناك استيرادات كثيرة هناك ، فالبضائع البربرية تقدر فى أماكن عديدة " ، تحدث الرجل بمبالغة وشعور بالفخر ، ولاحظت أول نقاط ضعفه وشعرت بعدم الراحة للجلوس معه وذلك مالم أشعر به مع حسن ، وتساءلتُ فيما لو أدرك السيد جيربوف هجائى له فقد كنت ساذجاً إلى حد كبير . . وتابع القول مضيفى " إنها المتعة أن أخدمك وأراك تشفى من جرحك المؤسف " . ثم شكرته ونحن ننتهى من احتساء الشاى .

7

وبعدما استعدت الرؤية بوضوح، أكملت مع حسن السير عبر المدينة ، وفي إحدى جولاتنا وقبل منتصف النهار مررنا بزقاق ضيق احتلت الشمس جدرانه البيضاء الصلدة دون أن تبقي متسعاً للظل، التقينا بالرجل الذى رماني بالحجر ، كان يفترش الأرض مقيداً ، ربطت كلتا يديه وقدميه بحبال شدت مع حبل قصير واحد مرتبط بالاثنين ، حيث لا يستطيع التحرك إلا قليلاً وجلست إلى جواره امرأة ذات خمار بقربها زهرية ملئت بالماء وهى تسقيه فى قدح معدنى صغير ، نظرت إلى دليلى ونحن نجتازها فى مسار ضيق ، لم نقل شيئاً رغم أن حسن أدرك الهجوم على وأحسّ بالعقاب واهتز لرؤية المعتدى ، كنت سأسأل فى غير هذا الحال وهذا المكان فيما لو كانت العقوبة عادلة أو قاسية ، وتصورت كم كان الموت قريباً منى ، ثم شعرت بالشمس تحرق جسد المعاقب فى ذلك الممر الضيق لولا وجود تلك المرأة التى كانت تهبه الراحة بحمل الماء إلى شفتيه .

وتساءلت كم سيبقى هناك وكم من الوقت بقيت هنا ؟ بقيت صامتاً احتراماً لحسن والسيد محمود الذى قرر العقوبة ولأن حسن أمسك ذراعى وقادنى مسرعاً خارج الممر ، مدركاً ما أصابنى من انفعال مفاجىء . ثم

أخذنى الى الكتّاب حيث المدرسة التى يتعلم الأطفال العربيه فيها ويحفظون القرآن ولكن دون فهم ، فـدخلنا فناء مسجد صغـير وجلسنا على الحصى قرب مجـموعة أولاد مؤلفة من تسع من البنين والبنات يبلغـون السابعة أو الثامنة ، يشكلون نـصف دائرة ، يجلس أمامهم رجل كـبير أشيب الشـعر والشارب ، له لحية صغيرة مشذبة يرتدى طربوشاً وجلابية سوداء ، يمتلك بصراً حـاداً وله نشاط ملحـوظ ، فى يده اليمنى عصـاً رفيـعة من الروطان وهو يرتل سوراً قصيرة من القرآن ، والتى راح الأولاد يرددونها بانتظام ، كما ذكـر لى ذلك حسن الذى جلس معى لفـترة قصيرة ، ثم نـهض واقفاً دون أن يقول شيئاً وغادر فناء المسجد ، انتابنى شعور مفاجىء بالوحدة حين ابتعد عنى ، بعـد ذلك كنتُ أنصت للشيخ وهو يرتل القرآن ويردده الأولاد بعده ، وبينما أحاول أن أجد تفسيراً للوضع الغريب الذى وجدت نفسى فيه مشـاهداً الأولاد وهم يحـاولون ترديد وإطاعة سـيدهم وإن كـان بعضـهم يتهـزهز وينخس الآخر دون مـلاحظة المعلم الذى ترك مكانه وجـاء صوبى لينهار على كفى بعصاه ، وصرخت متـوجعاً ، فضحك الأولاد ثم صمتوا فجـأة عندما حدق فـيهم مـعلمهم مهـدداً ، وعاد أثر ذلك إلى منصـته ، استشطت غضباً وأنا أشعر بيدى وقد تصلبت .

وبعد أن تيقن المعلم من وجود تلميذه الجـديد راح يعيد وبإصرار أكثر (السـورة القرآنيـة) وأنا أحاول جـاهداً أن أردد ماكنت أسـمع وإن لم أكن أعرف الأصوات (الكلمات والأصوات الصـحيحة وأصوات العلة) لكنى كنت أخشى أن أخفق فى الـترديد فكان الأطفال ينظرون إلى خلال فـترة الصمت وأنا أبادلهم النظرات ثم نتابع معاً تقليد أصوات الشيخ كأحسن ما يكون .

لم يبتسم الشيخ ولم يترك منصته بعد ذلك وإن رفع عصاه باتجاهنا مرات عدة .

تحسست الأثر الذى تركته عصا المعلم فى كفى اليسرى عندما لم أكن أتابع شفتيه وأحاول تقليد حركات لسانه والصوت الذى ينبعث من فمه الذى لا يشعر بالتعب .

بعد ذلك عاد حسن لنغادر المكان معاً دون إخبار الشيخ لنعود مباشرة إلى منزل السيد محمود جيربوف - للحديقة ولغرفتى ،تحدثنا قليلاً حيث سألنى حسن . . " هل فهمت شيئاً " قلت له " لا " . . ثم قال . . " هل تذكر شيئاً " فأعدت له ماحاولت استيعابه فى ذلك الوقت ليس أكثر ، فسألنى إذا كانت لدى الرغبة فى العودة قلت له " نعم " رغم بعض الشك الذى يلازمنى .

عدت ثانية للجلوس وحيداً مع الطيور ، أحتسى شاى النعناع الذى قدمه حبيب بشكل خاص ورددت بصوت عال وعلى مسمعه فقرة تعلمتها فضحك منى واستظهرالمقطع بشكل صحيح لكننا لم نناقش معنى ما رددناه وانساق الزمن فى بعد آخر بعد ذلك اليوم ، كان هذا الشىء حقيقياً بالنسبة لى لكننى لم أفقه السبب ، ودون أيما تفكير فيما يجرى بدأ عقلى ينهض من سباته ليردد عبارات طويلة حيه . . . ، إنها ليست لى لكنها رددت بالعربية من قبل الشيخ الذى يتولى تعليم القرآن والتى رددتها دون فهم فحواها . وصار الزمن (إيقاع أو صدى تلك الكلمات) التى أخذت بترديدها بوضوح ، لم يعد الوقت لدى سوى إيقاعات وتتابعات صوتية ، كان الشيخ يفصح من خلال كل ذلك عن خلجات روحه بتلاوته التى شد

إليها آذاننا الصاغية وانسحب هذا الشعور على المكان أيضاً إلى أبعد حد مما جعلنى أسير وحدى فى الفناء المغلق مردداً ما حفظته دون وعى . شعرت وكأنى سجين ، هذا ما بدا لى تماماً، كهجوم عرّج على لكنى تعلمت الكثير من الشيخ فى الكتاتيب ومن حسن كذلك من مسالك المدينة وأساليب اللغة التى طلبت بسذاجة تعلمها ، لم أدع لنفسى الخيار فى ذلك ، كذلك لم يسألنى أحد ، هذا التساؤل كان خارج حدود الزمن (الحالى) حتى أنى كنت منسياً خارج حدود ما كان يدور حولى . . أهدانى حسن نسخة من القرآن تدربت على قراءتها وحدى ، ولم أتبين مدى الترابط فى بعض المقاطع بين الحرف وما تقتضيه من أصوات لأن الشيخ لم يعرذلك أدنى اهتمام ، أى تعلمى الأبجدية أو أبسط قواعد اللغة ألأساسية ، بينما كان حسن يشرح لى هذا الترابط لكنه لم يكن ينوى معارضة طريقة الشيخ فى التعليم .كان ذلك بالنسة لى شيئاً مؤلما حد الجنون مما أدى ذلك إلى خلق حالة إرباك ذهنى لى . لم تكن تلك هى المرة ألأولى التى أغوص فيها بقناعتى داخل الأشياء وأتعقبها لنهاياتها دونما أى إدراك ، وبالطبع ليست هذه هى المرة الأخيره .

لم يتوفر لى قاموس ينتشلنى من هذه الورطة فى اشتباك المعانى مع لغتى الإنكليزية والفرنسية ، لم يكن هناك أى سياق يسمح بالترجمة سوى الإنهاك فى أن أردد وأقلد وأحفظ دون أى تساؤل . كنت مطوقاً بخيار معاشرة اللغة بقرف كبير ، ليس بسبب غياب المعانى ولكن الخوف من عدم ألإحساس بلذة تعلمها حد الغوص فيها ، وسؤالى لحسن عما تعنيه المقاطع المضافة لأول الكلمات وآخرها ونهاياتها ومن إجابته بالإنكليزية

أدركت أن تلك الأساليب كانت تعنى أكثر ما حاولت الترجمة بيانه أو تقريبه لى وفى حقيقة ألأمر أن الأخيره تفشل فى إعطاء المعنى الحقيقى للكلمة الأصلية عن طريق ألإنسجام بين ايقاعات الأصوات المتشابكة فيما بينها ، كانت اللغة وبكافة أشكالها تبدو صلدة بحيث لايمكن اختراقها ، محيرة غامضه كالأحجار الكلسية القديمة الواقفة بوجه الريح .

إن إعجاز اللغة كان يكمن فى جرس الكلمة الموسيقى الذى تخطى حدود المكان و الزمان شيئاً فشيئاً . كففت عن السؤال وتقبلت جهلى أمام إحساسى بعظمة هذا النغم تماماً مثلما عشقت عيناى الألوان بصمت دون أى تساؤل .

من وجهة نظرى التحليلية ، لم أكن أفقه شيئاً لكنى بدأت أستمتع أكثر فأكثر بكل ذلك ، كنا نتحاور لفترات طويلة وبغبطة متبادلة عن لغة القرآن التى نجهل كنهها ، على الأقل من جانبى أنا ، حتى أنى نسيت معنى الوقت ، بت لا أسأل نفسى كم مضى علىّ وأنا هنا، وكم من الوقت أنوى البقاء ، كنت أحسب الوقت بالتغيرات التى تطرأ على قيم الألوان فى السماء والبنايات والأشجار والتربة وكل شيء كان بعيونه الضوء . كذلك دورة ألأرض ، كان الضوء الدليل الذى سيقودنى نحو تبدل الزمن كقيمة الصوت بالنسبة للمعنى ، كان اللون والزمن يمتلكان إيقاعاً متبادلاً بحيث كانا يخلقان حالة من الموسيقى المتناغمة التى تأخذ بالارتفاع وتشذب ألإحساس لدى دون معرفتى سبب ذلك ، أحسست بظمأى المسرف للكلمات التى ولدت معى منذ طفولتى ولم أكن أشعر بامتلاكها الآن ، لكن منابع الكلمات حقاً تبقى واضحة فى الفراغ الخصيب للصمت

حينما يولد النطق بها وأنا أنصتُ للأصوات المسجونة التى جعلتنى أتساءل .. هل استطعتُ أن أفقه معنى تلك العاطفة حتى الآن ؟ وهل أستطيع أن أفصح عنها ببساطة أكثر دون أن يصيبنى القلق من عدم فهمها حينما أحاذر الصمت فقط ، أدركت أننى وجدت كلمات كنت قد ظننت أن عقلى المتعب قد فشل فى العثور عليها لكن الصمت عرّاها الآن .

كصخور الجيود(١) الموجودة فى المكسيك والبرازيل والتى تبدو للعين كتجويفات كلسية عادية حالما تطرقها تفتح لك ما تخبئه من كرستال يشع باللون . أو تشبه الصمت الذى يجمع رفيقين فى رحلة مملوءة بأسرار مضيئة مخبأة ، لاتُعرف دون دليل وتناغم صداقة تحميها وتكشف لها المخبوء بشكل غير مرئى .

اللغة هى ثروة من الكرستال ، هكذا بدأت أشعر دون الحاجة إلى تفتيت هذه الصخور إلى شظايا كى أوسّدها قلبى .. هل كنت واضحاً وساذجاً لأستمر فى الكشف مرة أخرى وأحمى هذه الصداقة التى عثرت عليها !! .

(١) صخور الجيود : هى حجر ذو تجويف مبطن ببلورات الجيود أو بمادة معدنية (المترجمة)

8

منذ أن حللت ضيفاً في المدينة القديمة كانت حياتي تمتلىء بثراء لا يوصف أحس بريقه فيما أرى من الصخور ، يذهلني التحديق في العوالم المضيئة الخفية ، حقاً رأيت العالم يتجسد في الألوان المتمازجة بعضها مع البعض ألآخر دون أيما تشويه لتلك الصورة فقد اختلط البرتقالي وألأسود مع ألأخضر الحاني بالبنفسج المتلألىء وكانها نغم مشترك في الوقت الذى يحافظ كل واحد من تلك الألوان على خصوصيته التي تشع في القلب . لاحظ حسن تغيراً جوهرياً في تكيفي للعيش و في درايتي غير الواعية للمدينة وذكر ببساطة ذات مرة لي ، " لم تعد تلك الغربة تؤلمك . . أليس كذلك ؟" "لا . . فقد رفعت عصابة رأسي منذ فترة كما تعلم وعاد أثر الجرح فوق جبهتي الذى كان يمتد على طولها ، إلى حالته الطبيعيه بحيث لم يعد وردياً محمراً " . . فتغيير لون الجرح هو المؤشر على طول إقامتي في المدينه وأدركت لاحقاً وبخجل شديد بأني قد نسيت من كانوا يشعرون بالضياع لاختفائي عن عوالمهم ، حتى أنني نسيت مراسلة أمي وشقيقتي الموجودتين في أمريكا أو ألأصدقاء والمعارف الموجودين في باريس .

عندما بدأت بالتفكير على هذا النحو أحسست بذنب كبير وعاد إلى

الإحساس بحساب الزمن مرة أخرى .

في يوم ما قال لى حسن . . " هل تفتقد أهلك وأصدقاءك ؟ " حقاً شعرت بالخجل لأنى لم أعد أملك هذا الشعور ، ربما كان السبب ذلك الفراغ الهائل فى قلبى والذى جعلنى أرحل بعيداً للعثور عليه ، إحساس الذنب هذا الذى أيقظه فىّ حسن جعلنى أكتب عدة رسائل أخذها هو إلى دائرة البريد التى تقع خارج المدينة والتى لم أغادرها منذ وصولى إليها.

سردت تفاصيل رحلتى فى تلك الرسالتين وأخبرتهم عن مكان إقامتى الحالية وما أفعله الآن لكنى لم أذكر لهم شيئاً عن الأذى الذى لحق بى ، بشكل مبسط يخلو من الإسهاب وضمنت الرسالة تفاصيل تعلمى بشكل غير مفصل ومبسط وحين استلمت الجواب من باريس وميرلاند لم أعد أشعر بفارق الوقت بين كتابتى للرسائل واستلامى الرد ، ولانى لا أؤرخ رسائلى فقد تمكنت من معرفة طول الفترة التى قضيتها هنا بقراءتى لرسائلهم . لقد أمضيت فى مراكش عامين كاملين ، حقاً أذهلتنى هذه المدة والتى تبدو أكبر من الخيال بعينه ، لم يحاول أحدهم حينما بقيت فى المدينة أن ينبهنى لمسألة الزمن هذه ، أو حتى كونى لم أفتقد أحداً ، فجأة أصابنى إحساس بالسخط على نفسى لتطفلى عليهم ونسيانى لأحبتى .

كيف حدث هذا دون أن أشعر بأى شيء ؟ كيف كان هذا الهروب من النفس مدة عامين ومن أولئك الذين لن يصدقوا وهم يعيشون بعيداً عنى الآن . ؟

عندما دخلت هذا العالم . . هل كنت قد أضعت الإحساس بالإنسانية ؟ هل

أصبحت رغبتى بالدخول إلى أعماق الفراغ نوعاً من انهماكى الشخصى لا أكثر. ؟

كانت رسائل أمى مليئة بتعابير الترويح بالرغم من خوفها بأنى قد متُّ ، حاولت إقناع نفسهـا بغير ذلك ، متذكرة رغبـتى بالعزلة منذ طفولتى وإن كانت غريبةً بعض الشىء .

لقد قامت برحلة مفاجئه إلى باريس للعثور علىّ ذاهبة إلى آخر عنوان مكثت فـيه والذى يقع فى شـارع فيـسكونتى ، ثم التقت بصـاحب البنايه السيـد " كيدون " الذى حـاول طمأنتهـا حول عودتى وأخـبرها بأنه ينوى الاحتـفاظ بممـتلكاتى القليلة لأطول مدة ممـكنة بغرفتى ، وقـال إننى من الذين سيقدرون هذا التصرف المتسم "بالخلق الفرنسى" ، لكونى من ذوى الطباع المخلصة .

وظنت والدتى بأن هذا الرجل كان نادراً من نوعه لكنه محقاً باعتقاده ، ودفعت إيجـار غرفـتى المتواضع لأشهـر قادمـة ، كما اسـتمـرت بإرسال الشيكات إلى السيد " كيدون " بسبب تمسكها بالأمل .

أما الرسـالة الثانيـه فكانت من إمرأه من منطقـة " بريتون " تدعى "كوين" والتى تكلمت معها باللغتين الفرنسية والأنكليزية عند وصولى إلى باريس حيث تصورت أنها أقرب إلى مما كـانت عليه بالفعل ، وذكرت فى رسالتـها بأنها كـانت تعتقد أنى فـى خطر فهى تبتهـل لله لكى يحرسنى ، كانت هذه المرأة منغمسة بحملات مضادة للحرب الجزائرية والتى لم تحددها ، تمنت لى الخير والعـافية ، لقد كان قلق الطيور صـدى آخر لتوترى . . لم

أتذكر شيئاً من ملامحهم غير شكل مبهم مما زاد من هذا التوتر . . لقد هزلت كثيراً عما كنتُ عليه في باريس أي في العامين اللذين قضيتهما في مراكش إلى حد جعلني أرى أضلعي في مرآة الغرفة التي كنت أستحم فيها وأن أفخاذي وساقي ويدي قد هزلت هي الأخرى بشكل ملحوظ ، أما جلد وجهي فقد بدا مشدوداً مما جعل عيني تبدو كأنها أكثر عمقاً من الحقيقة . كان حبيب يقص لي شعري ويحلق ذقني بين حين وآخر مستخدماً مقصاً وشفرة حلاقة ، فيما كان يلومني أحياناً لعدم إمكاني إكمال وجبة الطعام التي يجلبها لي .

كنا نردد سورة قرآنية كببغاوين تجمعهما روح واحدة تماماً مثل المتصوفين الذين يسعون للوصول إلى حالة روحانية توحدهم وتقربهم من الله .

بعد ذلك ضحكتُ ونسيت هموم الآخر .

بالرغم من الهزال الذي أصابني لم أكن أشعر بالضعف ، حيث كنت قادراً على السير ساعات . . ومن يدري فربما أميالٍ أو لمسافات أميال دون الشعور بالإرهاق والتعب .

لقد لامني حبيب بسبب بقائي وحيداً فترة طويلة قائلاً لي :
" أنت منعزلٌ أكثر من الحد المعقول ، كذلك هذا الهزال . . وعدم ممارستك القدر الكافي من الرياضة كما يجب أن يفعله الرجل "

هذا الكلام جعلني أغوص في الزمن .

الجزء الثالث

9

ذات صباح أثار حسن دهشتى حينما سألنى وبفضول شديد عن سبب مجيئى هنا إن لم أكن سائحاً أو طالباً !! " ألم تكن تشعر بالفرح فى منزلك ؟ " . . أزعجتنى كلمة "الفرح " فأجبته " كنت أريد الرحيل بعيداً" . . ترك على وجهه هذا الجواب ملامح العبوس والحيرة وضحكة خجلة تفصح عن جهله بما قلته . . لكننى لم أشأ أن يحدث ذلك بيننا ، حينما بقيت وحدى شعرت بعزلة مجهولة لم أحس بها منذ مجيئى إلى هذا المكان .

كانت حياتى خلال السنتين الماضيتين كستارة مضيئة عُلّقت أمام مسرح باهت وضعت بداخله عربة صغيرة صدئة وإلى جانبها قطع من الأثاث تنتظر أن تحشر فيها .

إنه المسرح الذى وددت الهروب منه دون أن تلاحقنى ذكرياته ورحت ثانية أرفع قطع الأثاث واحدة فواحدة إلى العربة . الصندوق الصغير ذو الجرارات المصنوع من الخشب (المهوكانى) الخفيف ، الكرسى الهزاز ذو الذراعين المكسوتين بقماش المخمل الأخضر الباهت اللون ومسنده المليء بالبقع ، ومصباح القراءة المصنوع من الخزف الصينى الأزرق ومنضدة الشطرنج . تمثال هوميروس البرونزى .

" خذ حذرك . خذ حذرك " . " لاتكسر ولا تنسَ أى شىء " ، هكذا كانت صيحات أمى

وفجأة أبصرتها تصعد على سطح العربة ، تتفحص محتوياتها ثم ناولتنى صندوقاً صغيراً مربوطاً يحتوى أشياء عديدة : غليونات قديمة ، مشابك لربطات العنق ، ساعة مكسورة ، ثم حدثتنى قائلة: ضع هذه الأشياء فى الكابينة ، إنها أشياء أبيك التى طالما كان شديد الحفاظ عليها ، وحين تراجعتُ وأكدتُ لها بأنى سأفعل ماتريد . . لفظنا معا كلمة " وبسلام " . . عندها ضحكت أمى ثم بكت فجأة . . حدقت فيها دون حراك بعدها حيث عادت إلى الشىء الذى اعتادت عليه دائماً . . ألبكاء ، أمسكت بها محاولاً تهدئتها كما كنت أفعل ذلك على الدوام، وفى نهاية المطاف تسمّرتُ دون حراك ، كنت فقط أحدق بوجل دون برود ، كنا ندرك نحن الاثنين من أننا لانملك ما نهبه لبعضنا فكل شىء كانت تفوح منه رائحة الماضى الذى غاب ، فى الوقت الذى لم يكن قد بقى شىء لمن رحل ، أعنى للموتى الذين كانوا من قبل قابضين على تلك الأشياء ، كان انشدادنا أشبه ما يكون معروفاً أو محصوراً بهذا الإرث .

حدقت بأمى وهى تصرخ . . فعلان كانا بمثابة "حدس" متبادل بين كل واحد أراد التخلص من الآخر لكى تبدأ حياة جديدة ، ثم بعد ذلك اختفى هذا المشهد وكأنه ستارة ملونة أخرى حينما كشف عن نفسه ، كنا مايقارب الثلاثة شاخصين على المسرح ، أنا ، أمى وشقيقتىَ ، أطبق حولنا هذا الفراغ حتى اجتاحنا المطر الخفيف والضباب محاولاً امتصاص وجعنا كأرواح " كامى " الأسطورية اليابانية التى تنهش أحلام البشر . تلاشت

الأشجار تحت وطأة طبقات الضباب ثم امـتدت نحونا أغصان أشجار الأرز والصنوبر لتلامس أجسادنا ، كل ذلك حدث فى منتصف آب وتعرق النهر حـباته من مـسامـات سواحله ، ومـاكنا نتـوقع المطر فى ذلك الوقت ، ابتعدت شقيـقتى عنا فى الحال وكأنها روح قلقة جاءت مـستأذنة من زوجها وحياتها الجديدة ، كان طالعـها ينبىء عن حزنها الذى بدا أقل مما كان عليه وهى فى ربيع سن الرابعة والعـشرين ، كانت تنظر للأمام فـيما كنت أنا لا أزال فى التاسعة عـشر وأمنا لم تتجاوز السابعة والأربعـين من العمر، أما أبانا فقد رحل عن عمر يناهز الرابعة والخـمسين أثر حادث سيارة أدت إلى أصابته بنزيـف دماغىّ راح ضحيتـه . ثم غاب أبى ليغادر المشـهد ، كان موجعاً حقاً أن نتخيل موته ، فقد ملأ حياتنا بالحنان والمسرة ، لذا فإن الألـم يجتاحنا حينما نحاول وصفـه . . كان طويلاً رشيقاً يرتدى نظارته ، اعتاد أن يحلق ذقنه كل صباح ، لقد شـاب قبل أوانه أما عيناه فقد غارتا عـميقاً فى محـاجرها ، له ذراعان طويلان وكـتفان كـبيران وقـويان ، كان يدخّن الغليون ويسترخى فى قاربه على الساحل الساكن ليصطاد السمك أو ليصلح الماكنه دون إتقان ، مـحاولاً تشميع الحـافة العلوية للمركب منعـاً للغرق ، محتسـياً شيئاً من الكحول مـازجاً الويسكى بالماء وأوراق النعناع فى بعض الأماسى كذلك النبيـذ الذى كان يحتسيه مع العشاء ، كان يـجهد نفسه فى عمله ، لقد أحبه كل من عمل معه مثلـما أحبته عائلته ، فهل استطاع كل ذلك أن يدرأ الموت عنه ؟ ، كـانت سطوة هيـبـتـه تقف حـائلاً بينى وبين الحديـث عنه ، كنت أدرك من خلال طوفـان دموع أمى من أنه لن يـغادر ذاكرتها أبداً بل كان حاضراً طول الوقت فى جميع تفاصيل حياتها ، وددت

مغادرة هذا المسرح كى أضع حداً لهـذا الحزن ، لأن الحزن كان كالمرآة التى تعكس الهموم التى خلّفها بعده ، لقد أخفى عن والدتى تفاصيل حياته لأنه كان يضع حاجزاً بينها و بينه ، لم يكن يملك سـوى راتبه الشهرى ، فقد حصل على استثمار بسيط من مدخراته وباع وثيقة التأمين على الحياة ليدفع بها ديونه القـديمة ، ثم مُنحَ تأميناً صـحياً بائساً ولم يكن فى مـخيلتى أنه حينمـا يتقـاعد فـأن الديون سوف تتـراكم بعضهـا فوق البـعض بما فيـها القروض الكـثيرة . ومن جـرّاء كل ذلك حُجـز المنزل كرهن عـقار لرجل رحل عن زوجته التى لم يشـأ لها أن تعمل فى الوقت التى كانت تنقـصها الخبرة لإتقان أى عمل . . لم يترك لها سوى هذا الحب .

لماذا رحلت بعـيداً ،هل لأترك نفـسى للضيـاع أم لأبحث عن حـياة بديلة ؟! . . طراز آخـر من الحياة يمنحنـى شيئـاً مغايراً لـلـيأس والأوهام والجهل كذلك الحب العاطل ، كنت أبحث عن نوع آخـر يقودنى بعيداً عن الإرباك أو جـمع الأثاث القديم ، جـرنى الوقت إلى الماضى مـرة أخرى تحت وطأة جميع تفـاصيل الحياة التى عشتهـا فى المدينة كى تموت أو تبعد على الأقل ذكريات الماضى الأليم . ثم عاد تدفق سـيل الذكريات ليخنقنى من جديد وغاص كل شىء ، عدا الحزن الذى لفنـى منطلقاً فى البعيد ، هناك وعلى الساحل حينما وقـفت أمى حيث الغسق الذى لف هذا العالم ، جلست على حافـة الظلة التى انتصبتْ فى البـاب محدقـاً فى النهر منتظراً غروب الشمس. وفجأة أطلقت أمى صرختها نحو النهر جعلتنى أقفز من مكانى لأنها كانت صرخة لاتشـبه أبداً صراخ الآخرين . . لم تكن عواءً أو عويلاً أو أنيناً لكنها رجع صـدى لصرخة مكتومة مـدة طويله كانت واهية

وكأنهـا صراخ الحيوانات حـينما تحاول الاقـتراب من بعضهـا. كانت تلك الصرخة تحذيراً أو ترحيباً راقبتها وهى تعيدها مرات عدة مثل شفق يتهاوى أو غروب شمس غير مرئى وهو يجـر أذياله القرمزية وخمار عطر الخزامى بعيداً إلى النهر نائياً عنا.

ذهبنا مساءاً إلى غـرفة الجلوس والتى كانت فارغة وتبدو أكـثر اتساعاً مع قطع الأثاث الصـغيـرة ، ثم تساءلت ، " ما نـفع أشيائه المـوجوده فى المخزن ؟ " فأجابتنى " أنت تعرف دون الحاجة إلى التساؤل "

" لكنى لا أعرف " قلت لها

" لتحفظها إذا ماضاعت الأشياء الأخرى "

" لكن قولى لى ، ماذا عن أشيائنا نحن . . هل أنها ليست بذات قيمة ؟"

وركضت بعد ذلك مطلقاً صرختى باتجاه النهر ثم غمر الماء خصرى ، نظرت شمالاً و يمـيناً فى هذا الظلام ضارباً الماء الدافىء بكلتا قـبضتىّ ، بعدها حـاولت تحريك الماء حولى وجـعله صافياً مـحيطاً نفسى بمكان شـبه منعزل وخالٍ .

ركضت مـسرعـةً خلفى صوب الشـاطىء وهى تصرخ مـرة أخرى ، مناديةً إياى بإسم والدى

" توم : هل أنت بخير ؟ "

قلتُ " كلا . . لست على مايرام "

كان الوحل من أعمـاق النهر قد غطى نعلى ولفّ سروالى القـصير ، كذلك كاحـلى ، ثم جلست أخلع حذائى وجواربى فوبخـتنى قائلةً " لا

يبعى التصرف بحماقة كما فعلت الآن " أيقظتها غرابة تصرفى من جرّاء صرختها غير المألوفة . . قائلاً لها " أنا مجنون "

" آه . . لقد أفزعتنى "

ثم قلت لها " أنت سببتِ لى الذعر "

فأجابت ببساطة " لم أكن أفهم ما يحدث " .

كان الظلام قد حل ولم نتبين بعضنا البعض رغم أننا كنا نجلس متقاربين على الرمال .

فأردفت تقول " ربما رغبَ والدك بالموت "

وكأنها تريد الانفصال عن نفسها ، ثم أجبتها بالنفى وكأنى أصر على رأيى ووافقتنى على ذلك قائلةً " أنت على حق . . لا أحد يريد الموت ، يجب أن تعدنى بعدم التفكير بذلك مهما يكن الأمر .

لم أنطق بأية كلمة .

" اعطنى وعداً فى هذا المكان "

فهمست لها " أنا أعدك "

. . لم أكن أعنى ماتحدثت به أو ما الحالة التى كانت فيها .

فى حقيقة الأمر كنت فى غياب الوعى . . من أنا ؟ . . لا أعرف كذلك من أكون ؟ أعتقد أننى بدأت أومن الآن ومن هذا الفضاء الذى يلف الساحل بالرحيل بعيداً لكى أهرب من الهمس الذى تفوهت به أمامها . «أنا لا أود تصديق اختياره تركنا ، هكذا وبشكل شتتنى أكثر مما كنت أنا فيه» .

10

عـدت أتذكر ألأشـياء التـى فعلناها سـوية أنا ووالدى فـيمـا يخص الزورق. كالتـرميمات البـسيطة وتصليح الكدمات والصـدع القديم ، كنا نصبغه بعـد القيام بترميمه كمـا نحاول تصليح أحد المطورات الذى حصلنا عليه من إحدى سياراتنا القديمة .

كان أبى يـميل إلى هذه الأعـمال فى أوقات مـختلفـة كالمسـاء المبكر وخلال عطلة نهاية ألأسبوع كمحاولة للخلاص من التوتر الناجم عن العمل حيث أن تلك ألأشـياء جعلتنى أعـتقد فى ذلـك الوقت وحتى ألآن أنه لم يكن ينوى الرحـيل وعـلاوةً على ذلك كـان هو والدتى ينهـضان مـبكرين صبـيحة أيام ألأحـد فى الربيع أو فى بداية الصيف ليمـارسا هواية مراقـبة الطيور ثم كـانا يذهبان مـعاً إلى الغـابات ألتى كانت تغطى أرضنا مـا عدا الجزء السـاحلى والمنطقة التى كانت تحـيط بدارنا ودار الضيافـة والممرات ، كذلك الشـوارع التى توصل إلى البيت ومرآب السـيارة . كان يخـبرنا بأنه اشترى ألأرض بسعر باهظ جداً لتكون مـلاذاً له ولعائلته لقضاء عطلة نهاية ألأسبوع وقد قـرر ألأنتقال هناك فيما بعد ، وبشكل دائم ليـجعل منها بيتنا الثابت . كان يفضل الخلوة كذلك المسافـة الطويلة التى كان يقطعها ليصل

العمل والحياة فى منطـقة مواصلات عامة . لقد فـاقت رغباته قدرته المادية أو هكذا كـان يبدو ، لكنه منحنا حـياةً مليـئة بالطيـور والحيوانات والـنهر ومتسعا بدون حدود من الخضرة والشجر .

فمن غير المعقول أن يـكون قد رغب بالرحيل وعلى ما يبدو كنا نحن الذين نرغب بالذهاب معه إلى أى مكان .

لقد علمـنى الشجاعـة دون الخوف ، ولكن علىّ الحـذر من الأفاعى الموجودة فى أرضنـا أو تلك الموجودة فى الأرض المشتـركة القـريبة من هذا النهر .

حين كنت فى سن الثانيه عشرة سنة أذكر أنه التقط ثعباناً طويلاً أسود اللون كان قـد زحف ووصل إلى حديقـة الدار الأمامـية ، وجدنـاه نائماً بالقرب من البـاحة فناداني حـيث كنت موجوداً قـرب الزورق وأنا أحاول تقليده بتـصليح الماكنة . . أصر أن يعلمنى كيـفية التعـامل مع الأفاعى . . كنت أرتجف وعلى وشك البكاء لـكنه وضع يدى اليسـرى تحت يده خلف رأس الأفعى ويدى اليمنى تحت ذنبـها ثم تركها لتتحـرك بحرية . . وفجأة لدغت ظهر يدى اليسرى . . فتركها تهرب وهى تتلوى لتتخلص من قبضتى التى نزفت من أثر عضتهـا لى ، بعد ذلك ، علّق والدى قائلاً لى " كان عليك أن تحكم قـبضـتك عليـها" لكن أمى كـانت ترتجف وهى تطالع مـا يجرى عند وقـوفها قرب الظلـة وأرادت بعد ذلك أن تأخذنى مسـرعة إلى منزل الدكتور ولـسن القريب من قـرية هارمونى ثم راح أبى يحاول طمأنتى بأن تلك الأفعى ليست سامة ، بعدها دخل المنزل متناولاً غليونه .

تعبت الأفـعى وهى تسحب نفسهـا باتجاه الممر المعـشوشب الذى يقع صوب مرآب السيارة والغابات .

حينما حملت يدى التى خُيِّل لى وكـأنها فصلت عن جسدى أو كدت أفقد الإحساس بهـا وأنا واثق من كلام أبى الذى أدركتُ من خلاله جرأتى لمّا أخفيت ذعـرى دون أن أنبس بكلمة ، فى الحقيـقة . . كان يبالغ كـثيراً لأنى فعلاً كنت مملوءاً بالرعب .

وتابع حـديثه "هناك نـوع من الأفاعى السـامـة فى الشاطى الشـرقى يسمى - كوبرا هيدس - وهى أفعى مائيـة سامة ، أما الأنواع الأخرى فلا تسبب أى خـوف» ، لوّح لى وأرانى كلا النوعين اللذين ضـمهما كـتاب صغير عن الـزواحف كان يحتفظ به في مكتبتـه جوار الكتب الأخرى التى تتحدث عن الطيور كذلك منظاراً مـكبراً وعديداً من السلايدات التى ضمت صوراً مختلفة.

حاولت أن أحفظ أشكال رؤوسها وتصاميم جلودها ولكنى نسيت كل ذلك فى الحال وأصـبحت حـذراً من كل الأفاعى ولم أتذكـر أنى قد رأيت أفـعى سامـة فى منطقـة ميـرلاند خلال تلـك السنوات كذلك لم أحـاول الإمـساك بأية واحـدة ودهشت لهدوئـه . . ربما كان يتـصنع ذلك أو ربما كانت تلك هى العاده التى جُبِلَ عليها . كان يبدو عليه حب البقاء فى المنزل مع أشيـاءه الخاصة وتلك الكائنات والنـاس الذين يزورونه وبالأخص أخوه "أليكسى" الذى يأتى بين الحين والآخر ويبقى بعض الوقت معنا .

التقـينا ببـائع السمك الملتـحى بملابس عمله التـقليدية بعـد أن أوقف

محرك قاربه الذى انساب صوب الشاطى متجهاً نحونا ، كان ذلك فى إحدى أماسى السبت ، فقد جاء يحمل صيد اليوم من سمك كان كالحجر تفحصه والدى ثمّ اشترى اثنتين للعشاء . استحضرت والدى وهو يرافق " أوتو" الذى كان يملك معمل النشارة فى أعلى النهر وقد كان يساعد والدى فى بناء وإصلاح مرآب العربات بعد الأضرار التى لحقت به من جرّاء العاصفة. غالباً ما يرتدى هؤلاء الذين يعيشون على امتداد النهر ملابس العمل الموحدة وقد لوحت الشمس أجسادهم وبغض النظر عن كونهم يعملون خلال أيام الأسبوع أم فى نهايته . . أستحضرت والدى الذى كان يرتدى الزى نفسه أيام العطل كما كان يرتدى ثياباً حمراء أو خضراء وبعد أن يلف كمّىَ قميصه حتى مرفقيه كصياد السمك .

كذلك جورج مزارع الحبوب والذى كان يمتلك الدجاج والخنازير والدواجن ويسمح لشقيقتى بامتطاء حصانه " سام" الكبير . .الكسول .

أما الحقول فقد كانت مخصصة لزراعة الرقى التى يجلبها الرجل الأسود أحياناً كهدايا وهو يرتدى زى العمل أيضاً.

وحينما كانت أمى تهم بالذهاب إلى مدينة " دينتون" لتزور أصدقائها الذين نادراً ما كنت أراهم ولوقت قصير، عندما كانت تأخذنى وأياها ونحن نجوب مخازن الألبسة الجاهزة والأقمشة وهى متاجر لبيع السلع الرخيصة . كان يروق لها ارتداء الملابس المزدانة بالورود ، وفى بعض الأحيان كانت تدس وردة فى شعرها الأحمر فوق أذنها اليسرى ، وغالباً ماتكون هذه الزهرة إما بريّة أو إحدى الزهور التى عنيت بزراعتها فى جميع أرجاء المنزل .

أما عمى الذى كان كـثير الشبه بوالدى الذى يصغره بعـامين فقد بقى اعزباً يعيش فى مدينة نيويورك فى شقة غريبـة بألوانها المتعددة ، كان كثير الهوس باقتناء اللوحـات والتماثيل وأشرطة موسيقى ألأوبرا ، كـان سمسار عملة ، عاشقاً للسـفر من وقت لآخر وكنا نحن الذين نمثل له هذا الهروب . الشارب كـان الفارق الوحيد بينه وبين أبى ، حـيث الاخير يبقى علـيه أما عمى فقد كان يحلقه ولا يتركـه يمتد إلا فى العطل التى تمتد طيلة شهر آب . كـان يعـشق العـم " أليكسى " ركـوب القـارب والجلوس عـلى الكرسى المصنوع من الجنفاص ، بجوار أمى عند المؤخـرة بينما كان أبى يدير القارب بمساعدتى ومساعدة شقيقتى.

أتذكر ملابسه التى غـالباً ماكانت سروالاً من الكتان الأبيض وقـميصاً قصير الكمين بلون أبيض وأزرق زاه له فتحة فى العنق ، وحذاء أبيض أشبه بالموكاسان ، كان يفضى بضحكته المرحة كلما اصطدنا سمكة . حتى عندما يلقى اليه أبى بسمكة اصطادها ، فأنه يتصرف كأخ كبير اعتاد أن يكون هو الأول . كان يغـدق علينا هداياه التى يجلبـها من نيويورك والـتى كانت فى الغالب ألعاباً نسـتمتع بها فى الماء . عند اختفاء المسـاء كان يغط فى نومه وهو ملقى على كرسى يتـوسط الممر المعشوشب تحت ظلة كـبيرة من القش وإلى جانبه كأس من الشراب وضع فوق منضدة مصنوعة من الخوص .

كنت أكن له الحب بالرغم من أنه لم يكـن يبادلنى الشـعور ذاته ، ثم أننا كنا نلاحظ اختلاف نمط حياته عنا حين نقوم بزيارته فى نيويورك، كان ذلك يتيح لنا السفر بـعيداً وذلك ما كنت أهواه حقاً . بعد فـترة عامين من وفاة أبى واستقـرارى فى فرنسا أخبر أمى كما كـتبت لى بعد ذلك ، بأنه

قام باستثمار الإرث حسب وصية أبى والذى سيساعد فى الحيلولة دون بيع المنزل حيث أبقى لها بعض المال ليعينها على هذا الأمر ، لم أكن أدرك ما إذا كان هذا الأمر حقيقياً أم أنه كان دعماً مالياً تولّى تقديمه هو.

فإذا كان الأمر كذلك لماذا لم يخبرنا بهذه الوصية من قبل أن نواجه هذا العوز والألم فى تكديس حاجيات والدى بعضها فوق البعض الآخر فى المخزن !!! كانت هذه إحدى حماقات الكبار التى لم أفهمها . . فى نهاية المطاف أردت الهرب من كل ذلك ولكل هذه الأسباب اعتملت بى الرغبة فى الأختفاء أو ربما لأسباب أخرى معروفةً أو مجهولة ، حقيقة أم عكس ذلك خاصة بى والتى لم يكن لها علاقة بوضع عائلتى المادى الحقيقى والمعروف .

لم يكن والدى رجلاً معدماً ، بالرغم من أننى لازلتُ أتساءل عما إذا كان فكر بذلك . إن الحقيقه كما بدت لى هى جزء من لعبة صغيره مارسها هو وجاء أخوه وهو ينوى كشف ما تبقى من تفاصيل اللعبة بعد موته الذى لم يكن يتمناه أبداً ، أو ربما مات حقاً بحادثه غير متوقعة أثناء قيادته للسيارة ومهما يكن من الأمر فقد أخفى ظروف حياته تاركاً أرملته وأطفاله يبحثون عن الحقيقة والأمان الذى افتقدوه.

مع كل معلومة أستطيع الحصول عليها كنت أحاول النسيان دون أن أغفر ، لقد أجبرتنا أسراره وأسرار أخيه أن ننفصل الواحد عن الآخر فى جوّ من الارتياب والقدر المشؤوم .

11

فى الأيام التاليه وبعد سؤال حسن عن سبب قدومى إلى مراكش ، أصابنى شيئان اثنان حيث بدأت أتذكر أبى دون شعورى بالغضب كذلك المشاعر الغريبة التى بدأتُ أشعر بها نحو فتاة شابة كنت قد عرفتها للتو . . حيث لم تمضِ مدة طويلة على قراءتي لقصيدة يابانية فى كتاب روايات "أقاصيص آيس" الذى كان يعبر بدهشة عن مشاعرى فى تلك الفترة التى عشتها في مراكش . كان محور القصيدة يدور حول رجل وقع فريسة الحب وهاجر من مكان لآخر بحثاً عن الحبيبة التى لم يعثر عليها أبداً ولم يتمكن من إيصال رسالته اليها . . :

كم من المرات

أبحر الزورق الصغير بين القصب

وهو يجىء ويذهب

دون أن يعرفه أحد

تذكرت تجربتى عندما كنت فى الثالثة عشر من عمرى ، مع تلك الأفعى السوداء التى لدغتنى ودون أدنى شكٍ ، كانت الواقعة تخصنى

وحدى لكن شبح والدى مثُل أمامى محاوراً إياى حتى أنسانى - فى حقيقة الأمر - نسيتُ قاربى أى نسيت حياتى التى اختلفت تماماً عن حياة أبى ، فى أحد تلك الأيام التى ذهبت شقيقتى وهى تقود دراجتها إلى بيت جورج (بائع السمك) لتمتطى حصانه " سام " ، ووالداى اللذان كانا مشغولين بمشاهدة الطيور . . فانطلقتُ وحدى فى قاربى .

لقد تعلمت من والدى أشياء كثيره عن التجديف ومواجهة التيارات التى قد تشكل خطراً علىّ ، لقد منحنى الثقة عندما جعلنى أشعر بقدرتى على قيادة القارب بمفردى والتى من خلالها اكتشفتُ أماكن جديدة لم أكن أعرفها من قبل ، كذلك إدراكى لخطورة التيارات .

جعلت القارب يقف قرب الساحل الرملى وبدأت أجذف أسفل النهر وبحركة بطيئة نحو المنتصف حيث كان الماء عميقاً والتيارات سريعة جداً . . استدرت خلفى إلى الساحل حيث بيتنا بمداخنه العالية والظلة التى تضاءلت طولاً أما أعينى . . مررت بطائر غرنوق . . وهو حيوان صغير من فصيلة البط الكركرى . . كان يقف بساق واحدة على الشاطىء ، كذلك كانت قد استلقت نائمة إحدى أفاعى الماء المسنّة على جذع إحدى الأشجار وهى تنام .

لم يشعر أياً منهما برغبة الهروب خوفاً عندما مررت بالقرب منهما ، كان قاربى يتمايل بسرعة وهدوء ولم يزعجهما . أدرت رأسى باتجاهين مختلفين لأعرف وجهتى . . ومنها أحسست بأن التيار بدأ يجرفنى سريعاً من جانب النهر وبعد وقت قصير توقفت عن الجذف متنقلاً إلى مؤخرة القارب مستخدماً أحد المجدافين كدفة لأقود وأوازن القارب باتجاه ضفة

مغطاة بالقصب الطويل.

وأخيراً توقف قاربى فجأة وسط كومة من القصب وبقيت فيها حتى استقر . . لأدرك بعدها أننى ابتعدت كثيراً كما لم أفعل من قبل .

لم أبتعد عن بيتنا كما حدث الآن إلا فى قارب يدفعه محرك عندما كنت مع عائلتى . . فكرت بأبى وأمى وهما يسيران وسط الغابة ثم يقفان دون حراك يربضان على الأرض كى لا يزعجا خلوة الطيور ، فكرت بشقيقتى وحصانها وهما يتجولان فى مسالك جديدة ويقفا ليشربا من ماء الساقية حيث ينمو القصب ، دفعت بقاربى على امتداده حتى وصلت لفضاء يطل على فوهة النهر الصغير ، دفعت بأحد مجدافىّ إلى أعماق الماء كى أتفحص عمق النهر ، لكنى لم أفلح فى ذلك ، كان النهر الجديد يبدو هادئاً على السطح كما لو كانت أمواجه بلا حراك عدا حركة متململة عند فمه حيث يلتقى النهران ، نهر الجوتانك والنهر الجديد الذى أطلقت عليه ببساطة اسم (النهر المار بالقصب) ، كان يسيراً علىّ أن أجذف وأتبع مسار النهر المتعرج ، متفحصاً أحياناً القصب المحيط بى الممتد على جهتى القارب حيث أُبحر ، كان النهر الجديد يبدو هادئاً على السطح إلى حدٍ جعلنى أنصت إلى خفقات قلبى رغم أننى لم أكن أعرف كم أمضيت من الوقت مجذفاً وسط القصب ، لكنه وقت طويل بالتأكيد وشعرت بجهد (انصب فى ذراعى) أدرت رأسى وأبصرت على بعد سطح سفينة خشبية صغيرة تطل بين القصب ، حاولت أن أُبطئ من مسير القارب ، وعلى مقربة منه أسندت رأسى إلى أعمدته الرمادية الملساء ، تاركاً ذراعىّ يأخذان قسطاً من الراحة ، وقفت أنصت إلى تغريد الطيور ، وعدت بالذاكرة حيث أمى

وأبى وهما يحملان منظاريهما ، كانا يبدوان بعيدين جداً ، كأنهما فى بلاد أخرى . . شعرت بالوحدة والخوف .

التجأت فجأة إلى مكان موحش وبعد أن استعدت أنفاسى ، شعرت بالراحة التى منحتنى إياها هدأة الماء والقصب . ربطت قاربي بأحد الأعمدة وانتقلت إلى الألواح الرمادية فى السفينه ، كان المكان مرتفعاً وتمكنت من رؤية مافوق حافات القصب ، حيث الطرق المؤدية إلى منزل وبستان من الصنوبر العالى ، وتساءلت . . من يعيش هنا وودت معرفة ذلك وسرت على امتداد العشب حتى وصلت إلى فضاء بين القصب وأشجار الصنوبر حيث شاهدت منزلاً صغيراً بنىّ بالآجر وفى بابه كانت تقف سيدة بدينة مسنة مرتدية فستاناً منقوشاً بالورد الأحمر والأصفر الشاحب ، ومنديل كبير لف شعرها الأبيض ، عدت إلى نهاية القصب محدقاً فيها بشىء من الذهول لكنهاْ رفعت يدها ملوحة لى داعيةً إياى للمجىء . . ترددت ثم لوحت بيدى أنا أيضاً، فكررت الدعوة حيث الباحة الخلفية للمنزل مكان زوجها والذى تحدث معى فيما بعد ، تساءلت عن كيفية معرفة رغبته بالتحدث معى ، إن الكبار يصلون إلى الحقيقة بحدسهم ، قفزت إلى ذهنى صورة جدتى لأمى التى رحلت ، تذكرت عادتى بالجلوس فى بهو حضنها الكبير والإصغاء إليها فيما تقوم بقص ما تعرفه عن أبى عندما كان صغيراً كذلك أبيها عندما كانت هى طفلة أيضاً . كانا متشابهين ، الاثنان عنيدان ومستقلان ، ولا تستطيع التخمين بما يفكران به أو ما هو طالع السوء الذى سيتعرضان له فى المستقبل . كانت تعرف أشياء كثيرة. مشيت خلف المرأة المسنة وهى تتجول حول المنزل . . كانت تعدو بخطوات رشيقة

وحشرجاتها كانت تسمع أثناء المسير .

حينمـا عرفتنى إلى زوجهـا ، لم أكن أصدق ما رأيتُ ، كان مـتدلياً رأساً على عقب فوق غصن شجـرة بحركة ضم الذراعين فوق الصدر ، لم يكن مرتدياً غير سرواله القصير ، عـارياً تماماً . كل شيئ كان يلفه البياض ، شعره ، ذقنه ، شاربه ولحيته الصغيرة ، حاجـباه . مغمضا عينه فيما كانت تقول السيدة بولاند : .

" هذا هو زوجى . . السيد بولاند " . . ذكرت اسمـه بصوت عالٍ وكأنها تحاول إيقاظه . " ما هو اسمك " . . سألتنى . . " توماس سيبرى " .

" وأنا السيدة بولاند " ، مـادةً يدها لمصافحتى ، بادلتها التـحية بخجل ، ضغطت كـفى بقوة ، عند ذلك فتح الرجل عـينه ماداً يده لمصافـحتى . . بادلته التحية ، كان حقاً شيئاً مثيراً للغرابة .

سألتنى السيـدة بولاند . . " من أين أتيت ؟ " كان صوتها عطوفـاً ، حانياً يشبه صوت جدتى ، أجبتهـا مشيراً إلى مكان عبر النهر . . ثم قالت " أنت إذن تعيش فى ذلك البيت حيث يلتقى نهـرى الجوتاناك والتاكهو " . . " نعم " فرحت لأنها تعرف سكناى ، " لم نعبر النهـر منذ ما يقرب العامين بسبب عطل القارب وهو ملقى هناك كما ترى " ، أشارت إلى قارب صغير متروك خلف المنزل وفى قعره ألأخـضر الباهت ثقبان، فتح السـيد بولاند ذراعه

محدقاً بصمت ، " هل وصـلت إلى هذا المكان بمفردك ؟" سألتنى وعيناها مفتوحتان بفخر وكبرياء .

" نعم . . كنت وحدى " . . أجـبتها بزهو حـيث لم أفعل ذلك من قبل . . "هـل أخافك شىء ؟" لم أخبـرها الحقـيقـة ، وأفزعنى زوجـها بصـوت عالٍ لا ينم عن شـعور بالألفـة قائلاً لى . . " هل تخـمن كم يبلغ عمرى ؟" وعـاودنى الشعور بالخوف مـرة أخرى . . أجبتـه بخجلٍ "لا أعرف " "هلا حزرت ؟" " نـعم " . . أجبت مـرتجفاً . . " لا تقـف هناك محـدقاً وقل ما تعرفه . . مائة ؟" وقهقه قهقهةً عاليه مما جعل السيد بولاند يتأرجح إلى الأمام والخلف ، وشـاركته زوجـته نوبة الضـحك هذه حتى تراقص فستانها الملون . . " أحزر مرة أخرى " . . أعاد علىّ السؤال بإصرار ، ورغم شعورى بالحرج والحماقة . . لم أفعل سـوى مشاركتهم الضحك أيضاً وأنا أقول لهم بأنى لا أعرف ، " حـاول (مائة وعشرون)" حقـاً لم أكن أجيد تقدير الأعـمار الحقيـقية لاناس أراهم أمـامى ، أدركت فقط أنه طاعن فى السن وكان هذا الرقم بمثابة مؤشر لعمره .

قال السيد بولاند . . " إذا كنت مصيباً فأنا أبلغ الخامسة والسبعين من العمر " .

أمسك وشاحاً كبيراً بكلتا يديه ثم أنزل جسده بعد أن لفه ثلاث مرات وقفز على الأرض . سألنى إذا كنتُ أعرف ما يحبذه من الطعام . . أجبت " لا أعرف " ، كنت مـعتاداً عـلى التجديف والنظر إلى الـطيور والزواحف والعناكب والأرانب (القـوارض) هذا كل ما أعـرف إذ ليست لدى الخـبرة بالإجابة على تلك الأسئلة واستمر فى حديثه قائلاً ، " أتناول الخضراوات

والفواكـه والحبوب وقليل من البـيض ، وأحيانا السـمك ولا أتناول اللحم كذلـك سكر النبات الحلو وها أنت تراني أتمتـع بصحـة جيدة ، فـهل أنت كذلك ؟" "نعم" . . قلتُ له . . رغم أن ضـربات قلبي آخذةً بالازدياد في كل مرة حينما يحاول توجيه الأسئلة لي بانتظار الإجابة عليها.

هل يعـرف والداك بعبورك النـهر ، قاطعـته زوجـته . . «إنك حـقاً ترعب الصبي» . . «إنني أسـأل فقط كي أحذره . فقد جـاء من مكان بعيد وسيقفل راجعاً بمفرده وهذه المرة سيكون عكس التيار» . . لم يكن والداي يعرفان برحلتي هذه . . كانا مطمئنين أنني ألهو بقاربي فقط .

خرجا لمراقبة الطيور بينما كانـت شقيقتي "ألن" تمتطي صهوة الجواد "سام" ، إنهما يثقان بك وبشقـيقتك "ألن" أليس كذلك ؟ سألني السيد بولاند ، قالت زوجـته . . نعم . . بالطبع يا "فـرانك" . . قلت لهم نعم دون أن أعرف سبب إلحاحهم واستغرابهم عبوري هذا النهر .

كنت مسروراً أن تقوم السيدة بولاند بالإجابة نيابة عني وتمنيت لو أنها كانت قريبة مني خلال فترة الدراسة التي أمقتها .

أثارت دهشتي هذه السيدة بسؤالها لي «هل تعرف كيف تجذف القارب جيداً» وأجابها زوجها . . «بالطبع يجيد ذلك وإلا ما كان يتحدث إلينا الآن» .

لم أكن أفهم من كان يتحـدث إلى الآن ، قالت لي وهي تنظرُ نحوي بحنان ورقّة كتلك التي كانت تغمـرني بها جدتي . . أجل سوف تعود إلى دارك بسلام ، وأكد لـي زوجها بأنه سيخـبرني عن ناي القصب ، قـاطعته زوجته طالبة منه عدم إثارة مخاوفي بهذه السـخافات التي ربما ستثير دهشة

أهلى إذا ما سمعوها . . ثم تابع السيد بولاند بهدوء . . «ليست سخافات» وأراهن أن أهله لم يسمعوا بها من قبل ، ولا حتى من هذا الصبى» .

شعرت بالإرتباك وهو يضع ذراعه حول كتفى ويقودنى عائداً نحو القارب ، كانت زوجته تتبعنا ، عندئذٍ لاحظت عاهته فقد كان أعرجاً.

حين وصلنا إلى مؤخرة السفينة وقفنا نحن الثلاثة متفحصين القارب الذى كان يبدو صغيراً فى حجمه ملامساً الماء ، قال السيد بولاند متفحصاً القصب بعينيه السوداوين . . «دعنا نجد لك شيئاً يساعدك فى رحلة العودة» وسألته زوجته . . «بماذا تفكر يا فرانك ؟ لا تملأ عقل الصبى بأفكارك الغريبه . . أليس كذلك ؟».

بدأت أشعر أن هذه السيدة لا تمانع تصرفات زوجها ولكنها تقدم له اقتراحات لم يفكر بها قط . . حتى بتّ لا أفهم حقيقة الموقف . أجابها السيد بولاند . . سأصنع له ناياً من القصب يساعده أثناء عودته لمنزله . . فقاطعته بحرارة وبضحكتها التى جعلتنى أتخيلها ثانية وكأنها جدتى قائلةً له «الآن يا فرانك» .

قطع السيد فرانك قصبة طويلة وفتحها من الوسط ونفخ فى إحدى نهاياتها ليزيل منها حشوتها اللحائية ، بعدها قام بقطعها بطول عشرة إنجات ممتدة على ثلاثة ثقوب قام بفتحها بواسطة سكينة صغيرة أخرجها من سرواله القصير ونفخ ثانية ولكنه سمع صفيراً واضحاً خلال هذه الآلة التى تحولت إلى ناى صغير وحين ناولنى إياها طلب منى أن أحدث نفس النغمة نفخت فى الآلة لكنى فشلت فى سماع هذا الصوت . . قال لى أنفخ بقوة

أكثر . . أطبق شفتك بحدة حول فتحة الناى . . حاولت ثانية وسمعت صوتاً يشبه حفيف أشجار الصنوبر فى صباح باكر أو قبل هبوب العاصفة . . استحسن بولاند مافعلته وقالت زوجته . . «جميل جداً» . . فرحت كثيراً بما فعلت ولكن دون أن أعى السبب ، ثم قام بعد ذلك بإسداء النصح لى وبحدة عن كيفية تجديفى فى النهر الكبير بعد مغادرتى القناة المارة بالقصب وأن أبقى قريباً من القصب على جانبى النهر لأن التيار سيكون ضدى وهو قوى بالطبع . . أصغيت لكلماته بحذر لإنى استرجعت ما حدث لى عند وصولى عندما فقدت سيطرتى بالحفاظ على موازنة القارب، فقد كنت أقود القارب بمجداف واحد عبر القصب ثم أخبرنى السيد بولاند بأن أدفع بصبر ودقة . . وليكن طريقى إلى جانب القصب حتى وصول البيت عبر الجانب الآخر.

وعندما أصل قريباً من فوهة النهر " تاكهو" سوف أجذف خارج التيار ، أجذف ببطء إلى «حيث يلتقى النهران» ، ثم تابع» إذا أمسكت بالمجذافين بتوازن وثبات فسيدفعك التيار إلى بيتك» وتساءلت السيدة بولاند فيما لو كنت قد أدركت ما حدثنى عنه السيد بولاند أجبتها «نعم» ، وأضافت السيدة بولاند . . إذا شعرت بتوعك وتوتر ونسيت ما يجب فعله فخذ هذه الآلة واعزف عليها كالرياح ، سيعود بعدها عليك هدوئك وتدرك ما ينبغى فعله . ستأخذك الأمواج كنسمة رقيقه وتحملك إلى مستقرك» ، ونادت زوجها مبتسمةً . . لم أفهم ما الذى دار بينهما بعدها سألنى إن كنت مستعداً للذهاب ، أجبته نعم ، بعدها صافحنى طالباً منى العوده يوماً ليخبرنى كيف أستطيع أن أقوم بمثل ماكان يقوم به عندما رأيته أول مرة

معلقاً نفســه راساً على عقب متدلياً من الشجــره . . ثم نظرت إليه زوجته فجأة نظرة استهـجان حتى يكف عن التحدث بتلك الأمور، وطبعـتقبلاتها على جبينى وخدى وهمست فى أذنى (احذر) فأومأت بالإيجاب مؤكداً لها بأنى سأفعل ذلك وطلب منى زوجها عدم نسيان ذلك المزمار وأنا أقفز إلى قـاربى وأجلس ممسكاً بـالمجذافيـن . . فككت رباط القـارب واندفـعت لأنساب فى النهرباتجاه نهر الجوتبانك فيمـا بقيت أراقبهما وهما يقفان على منصة إرساء القارب الخشبية .

لوحت لى السيـدة بولاند بيدها فيـما ظل هو مطرقاً ببصـره وكأنه لا يريد أن أسمع أية نصيحـة أو ألاحظ أى قلق وربما لسبب لا يتعلق بى على الإطلاق . لف ذراعـه حول خـصـر زوجتـه وظل يتـابعنى حـتى وصلت المنحنى الأول فى القناة الضيـقة . وضعت المجدافين ولوحت لهمـا مودعاً وحين وصلت فوهة النهر الذى اخترق قلب القصب . . صادفتنى مجموعة من البط الوحـشى تنساب فى الماءعلى امـتداد القصب لكن قـاربى أفزعـها فتفرقت من حولى ضاربة أجنحتـها باضطراب حتى تناثر ريشها فى الهواء ثم حط فوق قاربى ، تفحصت القصب فـرأيت صغير البط واقفاً دون حراك ، لم يزعجه صوت المجدافين اللذين كـانا يضربان الماء ، استمعت مرة أخرى إلى صوت السيدة بولاند . . «خذ جانب النهر واسحب قاربك على امتداد القصب» ، جـذبت القارب فى النهـر الكبيـر واستدرت بحـدة على طول القصب ، شعرت بالأمواج وهى تسحبنى قـريباً من الشاطىء لتتجه نحوى ، أمسكت بحفنة من القـصب وأنا أجر أنفاسى ، كان نبضى يزداد بسـرعته دون سمـاع ضربـاته لأن الريح كانت تعـوى من حولى ، بدأت أسـحب

قاربى قـرب القصب ، حزمـة فحزمـة حيث كـان أبى قد أخبـرنى بعدم الوقوف على حـافة القارب لكنى لا أستطيع أن أصل القـصب وأنا جالس لذلك تحركت إلى الأمام وأسرعت عبـر القارب كى أستطيع وصول القصب وتحريك القارب فى اتجاه معاكس للتيار ، كان حقاً عملاً شاقاً استغرق زمناً طويلاً وأنا أحـرك يدى متنقـلاً من حزمـة إلى أخرى من القـصب . ثم سمعت صوت السيـد بولاند وهو يقول لى «ليكن طريقك أعلى النهر حتى تصل البيت» .

ونظرت صوب المزمـار الذى كان ملقى على المقعـد الذى يتوسط بينى وبين قبضتى المجذافين المشتـبكين وتسللت عائداً إلى كرسى القيادة واضعا المزمار بين شفتىّ وضغطت على فوهته نافخاً بأقصى قوتى ، سمعت صفيراً كصفير الرياح العالى ونفخت ثانية ممسكاً بالمزمار بين فكىّ وأنا أجذف بعيداً عن التيار ، كان حقاً أشبه بموسيـقى لم أسمعها من قبل ، وعندما تحركت صوب المقعد فى مؤخرة القـارب وبدأت أقوده بمجداف مدفوع بذراع الدفة فى المركب وشعرت بأن التيارات تحملنـى بعيداً عن المجرى الرئيسى حيث يلتقى النهـران ويكون الماء عمـيقاً غـامقاً شـديد الكثافة ، نفـخت المزمار وكأنى أفـقد سيطرتـى على القارب لكن صوته منحـنى الهدوء تماماً كـما أخبرتنى السـيده بولاند من قبل حيث أقود القـارب عبر النهر مستـغلاً قوة التيار فى دفعه لى وكأنى كنت أعمل بذراعى أبى .

كتلك المرة التى هويت فيها من الشجرة وكسر مفصل ساقى فحملنى والدى إلى المنزل وخـفف الألم قليـلاً . لكنهـا كـانت ذراعى والصـوت صوت مزمارى .

تحرك قاربى مثل النسيم العليل أمام التيارات العاتية ، «سيحملك حيث تريد» ، كانت هذه صدى كلمات السيد بولاند .

استدرت محدقاً فى الشاطىء الآخر فتخيلت والدى وهما يجلسان على درجات الظلة ، كنت قريباً حيث أبصرت باقة من الأزهار البرية فى حضن أمى ، كانا ينظران إلى برفق وأنا أتسلل ثانية إلى الأمام حيث المقعد الوسطى . . قفزت من القارب فوق الرمال حيث كان أبى يمر باتجاه الممر الأخضر ، كنت كالمذعور وأنا أنصت لدقات قلبى ، ثم صاح أبى فجاةً «هل أستطيع مساعدتك فى سحب القارب إلى الساحل» ؟ أجبته «نعم» .

كان الارتعاش يغلب على صوتى ، فوضعت المجذافين تحت المقاعد داخل القارب وربطته إلى جدار الكونكريت كما كنت أفعل دائماً ، ثم أمسكت القارب بقوة ونظرت إلى أبى الذى قال لى . . " كنت تقود القارب بشكل حسن " . . وربت على كتفى ثم سار إلى الظلة حيث والدتى التى كانت تتفحص مجموعة من صور الطيور لتطلعنى عليها، شعرت بحضورها مرة أخرى فى المدينة . . كان أبى يلمس كتفى بينما كانت هى تحمل صورها . هاهو الأمس قد عاد إلىّ مثل لحظة عاشت معى كل الوقت وتناهى إلى مسمعى صوت السيد بولاند وهو يقول لى . . «عندما تكبر وتزداد طولاً حينئذٍ سأريك كيف تعلق جسدك من رأسك حتى قدميك»

12

تذكرت تلك اللحظة وبشكل جليّ ، حين كنت فى الثـانية عشر من العمـر .كان هناك تأثيراً غريبـاً يشدنى إلى زمان الطفـولة لكنه أصبح الآن شعوراً مغايراً، لذلك استحضرت هذه القصيدة التى تتوائم مع هذه المناسبة:

متأخراً شاخ الليل

والقمر امتطى صهوة السماء

كى يصل منتصف الطريق

يانسيم الجبل الخريفى

إنى أصلّى .. أقاتل من

أجل أن تعود

أو ربما كنت سأكتب فى هذه أشياء أخرى مثلاً :

متأخراً شاخ الليل

رأيت القمر يمر أمام جدار حديقتى

عودى ولو مرة واحدة يا حبيبتى

دون أن تختبئى فى الزمان

لقد أحببت حـقاً . كثيرون يفعلون ذلك والبعض يردده لفتـاة صغيرة وليس لإمرأة حـينما يكون بـعمرى أو لطفل عنـدما كنت فى سن الثـانية عشرة أو العاشرة .

قابلتها حـينما كانت تدرس القرآن لم أكن أعرف اسمهـا لكن عينيها الواسعتين العميقتين كانتـا تبتسمان لى من وقت لآخر كذلك ضحكتها التى كانت تخرج من فم جائع وشعرها الطويل الأسود . . حقاً أسرت نظراتى وتملكتنى .

لم ألتقيـها مطلقاً فى الدرس ، كانت خجـولة جداً إلى الحد الذى لا تسمح لى بمحادثتها ونحن نسير فى حديقة الجامع متجهين إلى بيوتنا .

أطلقت عليها اسم " ثمر " وهو اسم وجدته فى القرآن ، كان اسمها يوحى بالعطاء والخصب .

كنت أحدق فـيهـا من وقت لآخر بعيـن واحدة فيـما جعلـت العين الأخرى ترصد الشيخ وعصاه (الروطان)

كذلك تبعتها عبر المسـالك الضيقة المؤدية إلى بيتها وبعد توقف طويل ملىء بالترصد والأفكار التائهة ، استعدت أنفاسى أى عدتُ إلى وعيى وأنا اتابع العودة إلى غرفـتى الخاصة فى منزل السيد مـحمود جيربوف ، شـيئاً فشيئاً بدأت حقاً تأسر قلبى ، إن لم تكـن قد سحرتنى فعلاً وللحظة فقدت

السيطرة على نفسى وغربتى.. أى اختلافى عن هؤلاء .. كذلك عمرى عندما تجاوزت مرحلة الإعجاب إلى الحب ، صارت بالنسبة لى رمزاً للصبا والوله ، كنتُ قادراً على الفصل بينى وبين المكان باعتبارى زائراً ، امريكياً فى بلد آخر ، لدى تجربة ومغامرات من كل نوع .. أتعلم ألفاظاً رصينة وأظن أنى كنت قادراً على تكييف نفسى ضمن كل الظروف المختلفة .

أجامل ولأنى أعتقد أن كل الحماقة تتمثل فى رجل داهمه سن العشرين جالساً مع تلاميذ المدرسة .. مردداً جمل وكلمات الشيخ العربية ومحفوظات دون أن يعيها .

بدأت أفقد الإدراك بحقيقة من أكون أنا .. وعدم قدرتى على فرز سنوات عمرى ، لم أكن أكثر من حالة وعى انفصلت بتراخٍ عن حالتها الأولى .

كانت انتكاسة خطرة لم أفقهها وبدأت أُصدر أصواتاً وأتصرف كالأطفال .

كان حبيب يسخر منّى ويعتقد أنها جزء من تغيير طبعى إلى الحالة البربرية فيما كان حسن يحذرنى عندما أحاول إحراجه أمام صاحب الدار .

فى هذه الأثناء كنتُ أجلس فى صومعتى لأكتب الشعر إلى " ثمر " وأحياناً كنت أكتبه على ورق كبير وبحروف عربية كبيرة وواضحة وأضعه على الجدران التى كنت أعرف جيداً أنها ستمر بها حينما تعود إلى البيت ، لقد جعلت حبيب يكتبها لى أكثر من مرةٍ بخطه الواضح والجميل ، كان يظن أننا نقوم بكتابة جمل صوتيه أو شيئاً صوتياً كما كان يفعل

السفسطائيون " أخبرنى . . " أنا من أعماق قلبى . . وهو من باطن عقله كصديقين وصلا نشوة الحب ، كان يتصور أن ذلك دليل على تحولى إلى الإسلام وذلك ما يفرحه ، لكنى كنت فى حقيقة الأمر كمن فقد عقله بشكل جميل مروع ، لقد كان الطفل الغامض بالنسبة لى والذى صار فيما بعد ، الغموض ذاته .

وإن كان هذا مجرد عالم الزهور والفوانيا

ومهما يكن من اغترابنا عن بعضنا

فإن قلبينا سيلتقيان فى الربيع الحبيب .

وإن كنت قد فقدت القدرة على رؤية الأشياء بشكل منظور فمازلت أتصور الله وكأنه المحبوب لحديقتنا الطافحة بالحياة المتبادلة ولكن شيئاً فشيئاً ترك الحديقة وكذلك " ثمر " التى كانت معشوقتى المتجسدة فى صورته . . هو المعشوق الذى ألهمنى حبها وجعلها تشغف بى وجداً .

لماذا يا معشوقتى التى أضنتِ قلبى

تختبئين الآن فى الليل

يا غيابها الذى أصاب بالعمى

عينىَّ المتلهفة

أو لأذهب أبعد من ذلك :

عندما أنساك للحظة

ضفائر ليلكِ الطويلة الناعمة

عيناكِ المتوهجتان

تضيء لي حبي

أو :

أتسائل

من هو الأكثر ارتفاعاً

الرذاذ المنسكب من نافورة الجامع المقدس

أم دمعي المنهمر

وأنا بانتظار أن تضم ذراعاك

عشقي . .

عدتُ أشك في تمردي ، وعلى هذا النحو :

لو أننا سنموت

من أجل حبنا المحرم

مالذي سيقضي به الله

على عشقنا الذي يفقدنا الفردوس

مرةً أخرى :

أكثر قسوة من سكين الراعي التي يجز بها القطيع

هو الحب الذي يلتهمني

لا أحد يقدر أن يحررني من الله

الله الذى شد قلبى طفلين معاً

فى وثاق محرمٍ

ربما فى السطور اللاحقة سيتحول عقلى إلى بيت مهجور

لم يتبدل ولائى

لكنى تبدلت

أصبحتُ ظل حبى

ودربى بخطواته . . مثوى

لشبح بيتى المهجور

وأخيراً :

تَعبانِ من العالم

أصبحنا قطرتى ماء

فوق شفتين ظامئتين لسجين

وهانحن فى ظنّى الآن شبحان ،

فهل هناك نظرة تثبت عكس ذلك ؟

هذا السؤال المتروك دون إجابة على الجدران . . وحذر والديها الآخذ بالازدياد والشكوى للسيد جيربوف على تصرف ضيفه الأجنبى . . الذى يمر بالأزقة والشيوخ من الناس ترافقه صيحاتهم والآخرين بالعربية . .

«مجنون» .

أصبح حسن صديقى المخلص.. يحذرنى من سوء أفعالى والتى تجعلنى أفقد نفسى . .«ربما ابتعدت فترة طويلة عن أناسك» . . أجبته متوافقا نفسى . . منزعجاً من قسوته المفاجئة . . «إنى أحبها . . وهى كل ما رغبتُ به . . كل شيء أحببته دوماً».

قال لى "هى فى الحادية عشر من عمرها . . بن توماس . . أخبرك هذا كونك صديقى ، كانت غلطتى بوضعك فى صف للصبية ، فأنت لست كذلك ، أنت فقط تتصور ذلك" . . وحين لفظ " إنها غلطته " شعرت بالضيق وألححت عليه بأن يتركنى فى عزلتى هذه التى كنت أقضيها وحدى فى حديقتى الخاصة بى .

لم أتصل بأحد فى تلك الليلة . . رفضت تناول الطعام . . شعرت بالحيرة والقلق دون أية علامة تشير إلى مكانى ، استطالت جدران الحديقة وتشتت أغصان الكروم فوقها بأزهارها المجهولة وشذى عطرها الذى يؤثر فى ألآخر وكانه منوم مغناطيسى أخّاذ .

كانت الطيور الموشاة صدورها باللون الأصفر ذات الأجنحة السوداء تطير جيئة وذهابا ، هذا الصمت أضاف لى كتلة من الفراغ لغياب لم أكن قادراً على ملئه .

جف الدمع من أحداقى أو هكذا خيل لى ، لم أكن قادراً على رؤية أحد أو التواصل بالحب معه .ضعت فى وقار طاهر ووفاء يوغل فى خيالى ، لا أعرف غير القليل ، أنظم الشعر دون أن أكترث بالقافية ، أصبحت مذعوراً لكنى اقتنعت من أن حسن قد كشف الحقيقة وبشكل هادىء لئلا

يجرحني ، لست طفلاً ، كنت وضيعاً أهوجاً كاد أن يجن أو أنه فقد عقله بالفعل . أمضيت الليلة في البيت حتى بلل الدمع أكمامي ، ارتجفت منفعلاً وكان وجهي مسلوب الإحساس مثل لوحة صماء لا ينطق فيها لون، لم يخامرني هذا الشعور منذ أن رحل أبي بعيداً ، ضربت جذع الشجرة بقبضتي حتى سال الدم منها ، أما الآن . . أجلس على الكرسي مرتجفاً ، أنوح وأنا أسأل نفسي . . مالذي سيحل بي ؟ لم يدر في خلدي أن الإنسان يصاب بالحمق بسبب الظلالة أو الحب وتذكرت وصية أمي وأشياء أبي ووقوفها قرب الساحل وكأن الدموع تصرخ ، كأنها صدى الألم . . يا لجنوني الغريب المفاجيء ، وشوقي لإنسان أجهله ، نحُلَ جسدي من هذه العلة وصرت ظلاً يسامر صورة غائمة ، باسطاً ذراعيه لهذا العشق .

عند الصباح أتوق لهذا التوازن أكثر من أي وقت مضى . . هربت من نفسي لبؤس حالها ومما هي عليه الآن . . فارتميت في ذاكرة صورة أخرى لطفولتي .

لم تكن تتعلق بالنهر ولاتمت بصلة لأبي ولأمي أو لشقيقتي ، كانت شيئاً مغايراً حقاً ، ربما لا تعني لهم شيئاً ، تذكرت النسيم الذي داعب الستائر قرب سريري على النافذة حيث كنتُ مستلقياً على فراشي ، وكان الوقت عصراً ، أخذت القيلولة كما كنت أفعل في الصغر لكي أهرب من حرارة الشمس ورطوبة الساحل الشرقي ، كنت ألتذ بالتطلع للستائر البيضاء القطنية ، تبحر وكأنها أشرعة ممتدة تذهب مع النسائم القادمة من النهر فبدت لي وكأنها أشرعة لصارية لا ترى أدارت اتجاه قاربي في التفاتة صغيرة حملتني بعيداً صوب أماكن قلما أعرف أسماءها .

13

قلما زارني السيد محمود جيربوف احتراماً منه لرغبتي في البقاء وحيداً ولم يبدِ ضجره من بقائي وإياهم دون تحديد موعد مغادرتي . جاء فجأةً لتناول الشاي وبعض الكعك ، ولم ينفذ صبر الرجل أو يفقد قدرته على الاحتمال وتجنب الإثارة لما أخبرني حسن والذى أصبح واضحاً للجميع .

تركني السيد محمود مدركاً تأخر الوقت وسألني كما فعل حبيب إن كنت أعاني من سوء التغذية كرجل ، أجبته بإصرار . . أنني بصحة جيدة وأسكن في دار ممتازة وكل احتياجاتي متوفرة . . فتساءل مندهشا : «كيف وأنت بهذا الهزال وفي هذه الوحدة» ، قلتُ له : كنت أكمل مذكراتي ، أو بالأحرى تأملات وقصائد منثورة .

بدا السيد محمود فرحاً وممتناً لأني أقوم بذلك وبهدوءٍ في منزله ، لكنه تابع . . «أنت بحاجه إلى إمرأه ويجب أن تعيش حياتك على الوجه الأكمل وإلا فسوف تذبل وتموت ، ثق بي كأخ أو صديق ودعني أرتب لك الأمر هذه الليلة ، إن تحديد الموعد لأمر ثقيل علي لأنه مفروض ومحدد من قبل شخص آخر . اشتقت لوحدتي حيث ألقي الضوء تحيته عليّ ،

والأزهار وأوراق الأشجار والجدران ، كان الوقت يسرع بين خشخشة الطيور التى كان أصنافها غير مألوفة والانطلاقات المبهمة .

عدوت من الحمام عبر ساحة الدار ماراً بأبوابٍ عدة ، مغلقةً فى الجناح الخاص بمحمود جيربوف وانطلقت إلى المدينة حيث فكرت جدياً بمحاولة الهرب ، أنى أمقت أن يفرض الآخرون ما علىّ فعله ، إنها الروح البشرية التى جعلتنى أفكر فى ترك المكان ، كنتُ مقتنعاً بالعيش خارج الزمان وبعيداً عن جهود الآخرين لاستحضار الزمن فى ارتكاب حماقاتى ، ربما حاولت تجاوز رغبة كهذه بالسفر والانخراط فى أعمال مختلفة وتجنب التعليم التقليدى والتدرب على الأعمال وغير ذلك .

وقبلتنى أمى برفق حيث أعمل . . وأتجول وهى على يقين بأن كل محاسن الحضارة تكتمل فى تدريب العمل والزواج والأطفال وتنمية الهوايات والاهتمام بصحة البدن والتخطيط الجيد للزمن الذى يتلو ترك لوظيفة ، والتى يمكن أن يدركه فقط من يهتم بذلك .

لم أكن اؤمن وليسن لديه الرغبة فى تحليل ذلك الاعتقاد أو تفسير حبى الطاهر أو نزواتى الحالية .

ارتباطى بالنساء لم يكن بالأمر الذى أفكر فيه ، وهذا الأمر لا يعنى أننى لوطى بل على العكس تماماً ، لم أكن أؤمن وليست لدى الرغبة فى تحليل هذا الاعتقاد أو حتى تحليقى فى الفانتازيا والحب الصبيانى ، لقد أزعجنى هذا المقترح فاستشطت غضباً لهذا الربط التافه بينى وبين المرأة للعجرفة والغطرسة والقباحة التى يتسم بها الموقف.

كان تصرفاً وحشياً لعجزهم منى كعازب كما اعتقدت وإشارة لى منهم لمغادرة المكان بأسرع ما يمكن ولأنى قررت الهروب بهذه الطريقة فقد صرت أخشى الظهور فى أى مكان ينتمى إلى السيد محمود ، عدتُ ثانيةً للتفكير بالفرنسية رغم أن العربية ما تزال تستحوذ على عقلى دون إدراك منى .

لم أشعر بالغربة ، لأنى بتُّ أتحدث بثلاث لغات مستخدماً الإنكليزية من وقت إلى آخر ثم ظهر السيد محمود فى إحدى زياراته المعتادة ببدلة ال (تويد) متخفياً كرجل انكليزى فى أحدث زىّ .

نادراً ما كنت أفكر بالإنكليزية . كان عقلى ينطق بشكل إيقاعى متناغم بالعربية ، حسب الأفكار التى تشغل ذهنى تتناسل من اللغة الفرنسية لكنى كنت فى فترات قصيرة أمزح باللغة الإنكليزية وأسخر من حالى ، وأتمتع فى وصف تفاصيل الأشياء ووصف الأشخاص من حولى. بدأت الآن أدفع ضريبة اللغات الثلاث التى تحاصرنى ، لأفكر بشيء مناسب وعمل مبدع أقوم به بعد ذلك وفى الصباح وبينما كنت أسير فى الساحة حيث سحرة الأفاعى يضعون أشياءهم ، وجدت الحل الملائم لشخص فى متاهتى ، سرتُ مرات عديده خلال الساحة الصخرية الصغيرة حيث يستمر سحرة الأفاعى بممارسة أعمالهم أمام السياح ، كنت قلما أقف قربهم عندما أراهم ، رغم ما يأتون به من حيل جديدة .

لم أتحدث مع أحد قط ، كانت مزاميرهم وأبواقهم وأصابعهم المفتوحة ورقصاتهم العربية عبارة عن مناظر غير منسجمة لذلك فضلت أن أتجاهلها ، كانت عرضاً تهريجياً وألعاب سيرك سحرة الأفاعى الذين سمح لهم بالدخول إلى المدينة والخروج منها ظل الشك يحوم حولهم باعتبارهم

غجـراً وقطاع طرق ، لم يكونوا بالضـرورة من البربر والعـرب ، كانوا من أصلٍ هجين من قبـائل الصحراء البدوية المنحـدرة من جنوب المغرب ، لا أحد يعرف من هم أو يتوقع منهم أن يحترموا أو يطيـعوا أصول الضيافة ، إنهم يرافقون الأفاعى صامتين بمعنى أنهم يشكلون منظراً غاية فى الغرابة.

توقفتُ وأنا أجتاز الساحة لأرى ساحر أفاعي شاب يماثلنى فى الطول والجسد ، له لحية هزيلة شبيهة بلحيتى ولون بشرته الشاحب كما هو حال الأوربيين ، كان له اثنان من ألأفاعى وكأنهـما حزمة راقدة بشكل حلزونى فوق حـصيـرة ، إحداهمـا كوبرا إلا أنى لـم أمـيز الأخرى لأنهـا لـم تكن بالطول الذى كانت عليه ألأولى ، ولا تشبـه الأفاعى التى رأيتها فى المدينة أو الساحة العامة ، كان مع الساحر سلة منسوجة ومزمار موسيقى ، حيث ارتدى جلابية زرقـاء داكنة ووضع قبعة بيضـاء متسخة مـتخطياً المكان ببطء محركـا يديه بحذر ودقة كقائد الأوركـسترا أمام الأفاعى وقد بدا مـسحوراً أكثر من ألأفاعى نفـسها وهما تحركان رأسـيهما على إيقاع أنغامـه وكأنهما يوجهانه أكثر مما كان يفعل هو حينمايهم برخراجهما من سكونهن .

تساءلتُ كما لو كنت أعرف فن هذا الساحر من خلال رصده المستمر ، كنت أعتقد أن هذه هى فرصـتى للهرب لأنى كنت أدرك أن هؤلاء السحره يجيئون ويذهبون إلى المدينة حسب رغبتهم دون أن يلاحظهم أو يسأل عنهم أحد ، كـانت فرصتى الوحيـدة للاختفاء . كـان الأمر يبدو حمـاقة لأنه يتطلب التآلف مع الأفاعى الخطرة . إن الشعـور الغريزى بتخويفهم وتمكنى منهم ، ولكنى فى الحـقيقـة ، لم يكن لدى الوقت الكافى لاكتـساب هذه الخبـرة ، كان يستـحيل علىّ السيـر خارج المدينة إلى محطة البـاصات ،

فالكل يعرفنى وسيذكرون ذلك فكلمة واحدة ستعيدنى إلى السيد محمود وإلى دارى . لقد اعتاد الناس على رؤيتى مدة عامين كاملين وأنا أسير أمام محلاتهم وأتوقف لأتفحص بالات القطن المصبوغة المعلقة فوق الأسلاك وهى تطالع السماء حاملا مصابيح الضباب فى محل عامل المعادن مازحاً مع بائع الأعشاب مصغياً للصبى الذى يقوم بالغزل وهو يصرخ فى تقليد ساخر لصيحة المؤذن الذى ينادى للصلاة بينما يحتفظ بإيقاعه الرتيب بشكل متوازن مع وضع إبهاميه تحت أذنيه . شاهدت الجلابيات الجديدة معلقة على المشابك ، السجاد مفروش والخراف حليقة الصوف وآلة دباغة الصوف لفرشه . رآنى رجال الدين ، رجال الأعمال ميزونى ، أمسكنى الأطفال فيما لم يكن هناك مخرج من المدينة يؤدى إلى مكان لا يعرفنى فيه أحد . لقد كان الكثير يعتقد بأننى مجنون ولم يبدو بأنهم يشعرون بالراحة لمغادرتى ، كنت أتصور هذا فى فصل آخر وأشهر مضت فى منتصف الصيف وفى أقصى درجات الحراره والشمس ترتفع وسط السماء .

أصبحت غير مرئى حينما ارتديت الجلابية البيضاء البنية المائلة للصفرة ، ماراً بنوافذهم المغلقة . كان الناس يجلسون قرب البنايات ورؤوسهم تختبىء تحت قبعات الخوص والمظلات ، ربما لم يرنى أحد لكنى لم أستطع الانتظار ، علىّ المغادره ألآن فلست أطيق الانتظار إلى الغد .

أصبحت قرب الساحر وتحدثتُ إليه بالفرنسية التى لم يفهمها ثم بالإنكليزية والتى كان يجهلها أيطاً ثم قال لى (روسى) أو هكذا بدت لى ، (روسى) أعدتها أنا أيضا ، أجابنى بالإنكليزية «نعم» ، قلتُ له «لا» . كان كل ذلك نوع من الحماقة وتساءلتُ فيما لو كان الرجل قد تجول

متخفياً فى فضائل الحضاره أيضا ، توقفنا بعدها عن الحديث .

شاهدته بعد ذلك يناور أفاعيه ، حـاولت معرفة نوع الأفعى الأخرى لإنها كانت صعبة الترويض كالكوبرا التى كنت قد قرأت عنها مرات عديدة عندما كنتُ أعيش فى ساحل شرقى ميرلاند . تحدثنا بعد ذلك بالعربية لكن هذا الشخص الروسى كان يعرف القليل فقط . تحـركت ألأفعى الثانية قريباً من حافة الحصيرة واقتربتُ منها كى أتفحصها . سحبنى الرجل فجأةً بقوه وكأنه يهزنى وذلك عندما شاهد رأس ألأفعى وهى تفرّ نحوى كما لو كانت قد رمت بجســدها من فوق شجرة . حرّك يده اليـمنى نحو صدره وبإيماءة خاصــه أعلن انتهـاء العرض . رفع ذراعـيه فـوق رأسه وحنى ظهـره مثل عمـلاق يتضاءل بجـسده ليغـدو كقزم . لقـد تملق الأفعى لإعـادتها لكن الكوبرا لم تتحرك، كنت متردداً بالتفكير ولكن لم يكن لدى خيار آخر.

أبصـرت الساحـر وهو يحاول أن يهـدىء من روع الأفعى المنفـعلة ، حتى أنه لف جـسدها على بعـد قدم واحد من الكوبـرا فوضع رأسه عـبر جسدها الملتوى حتى ومضت بعينيـها وابتلعت لسانها . قام الساحر بذلك عبر حركات جسده فقط . حركـات اليد والأكتاف مرتفعة ، ذراعان ممتدان وركبتان منحنيتان كما لو كانت فى رقصة. .ثم أعقب ذلك صمت مطبق .

كانت ألأفاعى منسجمة معه ، واثقـة من أنه لا يخيفها أو يؤذيها كما كنت أفعل أنا الغـريب. وأطبق الروسى عن قرب وهو يتـحرك ببطء داخل الحصيرة باتجاه الأفعى ، ينحنى إلى الأمام فى موازنة وسيطرة تامتين . رفع الأفعى بكلتا يديه ليـضعها فى السلة وهو يطوى جـسدها برقة إلى الداخل تاركاً إياها تحت الغطاء فى ظلام مريح ، ثم عاد إلىّ مطأطأ الراس ، جلس

على الأرض وقام بحركات بسيطة عبر رأسه ويديه ليفزع الكوبرا والتى بدأت تفحّ وتوازن رأسها حتى بدأتُ أنا أيضا أشعر بسمفونية متناسقة تحدثها الإشارات العمياء ، بعد فترة وجيزة ، رفع ذلك الروسى الكوبرا بيده ولفها برقة داخل السلة مع رفيقتها المسالمة . تبادلنا النظرات ولكن بصمت أيضاً.

أدركت أن الروسى قد فهم ما أبغى حيث أنه سلمنى حقيبة فيها أشياء شخصية لأحملها بينما التقط هو سلة الأفاعى وحصيرته إذ لم يكن هناك متسع من الوقت . مشينا معاً باتجاه سوق الأصواف وحتى وصلنا الجزء الشرقى من المدينة ، دخلنا ساحة مليئه بالرجال والخراف وهم يصطفون بانتظار أن تقلّهم سلسلة الشاحنات القديمة . سرنا معاً وكأننا رفيقان قديمان ، أدركت بعدها أن الروسى لا يريد إثارة إنتباه أحد كما كنت أنا أريد الشيء نفسه ، ورأينا حشد من الرجال لم يعرفنا أحد منهم حتى وصلنا إحدى الحافلات . صعد الروسى إليها أولاً وأخذ الحقيبة من يدى ثم سحبنى إليها بجانبه ، جلسنا قرب موضع القيادة فى الحافلة المفتوحة مسندين قفانا إلى الحافة الجانبية . وضعنا الحصير والحقيبة وكذلك سلة الأفاعى بين أرجلنا فى هذا المكان الآمن الصغير . ملئت الحافلة بالرجال وما يزيد عن إثنى عشر خروفاً كانت تسيل الدماء من ظهورهم لأنهم قد حلقوا للتو . تشبعت ملابسنا بالرائحة النتنة ، خفضت رأسى فوق ركبتىّ . ناولنى الروسى برتقالة من حقيبته ، قمت بتقشيرها فوق أرضية الشاحنة وناولته جزءاً منها بينما أكلت ما تبقى . كانت الخراف تخور فيما تحركت الشاحنة .

كان الروسى يمد بيده بجوانب السلة ليهدىء الأفاعى المخشخشة . رفعت رأسى إذ وخز الروسى ذراعى لينبهنى بأننا وصلنا ضواحى مراكش ،

كنا نسير صوب الشمال بعيداً عن الجبال التى كانت ترفرف فوقنا بقممها المغطاة بالجليد كطبقات الحناء الكثيفة الى كانت تغطى الأرض ، لقد تغيرت الأرض عما كانت عليه حين وصلت قبل عامين ثم بدأت مراكش تتوارى عن الأنظار .

اختفت التلال الصغيرة الواقعة فى الطريق المتعرج وأقبية الفنادق .

لم نستطع التحدث أنا ورفيقى ولم يكن ذلك بالشىء المهم وكانت الحافلة تسير ببطء دون توقف . وصلنا إلى بناية فى جانب الشارع فيها مقهى صغير . قفز الرعاة من فوق جوانب السيارات ليريحوا أنفسهم كما شاؤوا . بقينا أنا وصاحبى وحيدين مع الخراف فى الشاحنة لوهلة قفزت بعدها إلى الأرض . ناولنى الروسى أشياءه الواحدة تلو الأخرى ، أعطانى سلة الأفاعى ببطء وأشار علىّ بالمزيد من الحذر وأنا أحمل جانبيها بشكل معتدل وأحكم غلق الغطاء بإبهامى . حملتها بهدوء قريباً من وجهى ، شعرت بالأفاعى وهى تتحرك فى داخلها . أخذ الروسى السلة من يدى حين قفز بقربى ثم وضعها على الأرض بعيداً عن رائحة الخراف النتنة .

مرت السيارات بنا بأقصى سرعتها ، حين رميت ببصرى إلى الشارع الخارجى شاهدتُ سيارة مألوفة لدى ، أمسكت بذراع صاحبى بقوه ، هدّأ الروسى من مخاوفى وتصرف بعفوية ودون أن أبصر ما فعل ، حمل أفعى بيده ووضعها فى يدى ثم انحنى ليرفع الأخرى ، أشار إلىّ وكان قفانا باتجاه الطريق وذراعانا ممدودتان فحملنا الأفاعى إلى الأعلى . داهمنى الرعب فلم أقدر على التنفس ولا حتى على الحركه ، ضغطتُ على رقبة الأفعى بإبهامى راصبع السبابة وحملت ذنبها بيدى اليسرى ، رفع الروسى

أفعى الكوبرا وصفّر لها برقة لتبقى هادئة ، سمعنا سيارة ديزل تبطيء السير قربنا لكنها لم تتوقف، أدرت رأسي قليلاً فرأيت محمود يجلس في المقعد الخلفي قرب حسن ولكنّي لم أعرف السائق . كان الرعاة يقفون بباب المقهى محملقين بنا ، مأخوذين بالأفاعي وسحرتها ولا شك أنهم لم يعرفوا رفاق سفرهم و لا عملهم كما جهلوا محتويات السلة حتى ذلك الحين . أخفى صاحبي الأفاعي حين اقترب الرعاة وهم يستعدون للانقضاض علينا .

وضع الروسي الكوبرا في الحقيبة تاركاً الغطاء مفتوحاً ولم تكن هذه الأفعي راضية بذلك التصرف فأبقت رأسها مرفوعاً يندفع بانفعال ثم سحب بحذر ابهامه الأيمن وسبابته على امتداد جسد الأفعى الأخرى التي كانت في يدي وضغط على جسدها جاعلاً أصابعي تنحدر إلى الأسفل ببطء وتوازن حتى نقل الأفعي إلى يده دون أن تحرك رأسها ثم أمسك ذنبها بيده الأخرى ، كان العرق يتصبب من وجه الروسي وحين أبصرتُ حالتي ، كانت جلابتي مبتلة بالعرق ، خفض الروسي الأفعى ببطء من أمام رأس الكوبرا وهو مازال يتمتم بإيقاع سهل خفيف ولفت الكوبرا جسدها حول رسغه وأصابعه دون أن تؤذيه وبعد لحظات قليلة من الهدوء والتي من خلالها رأيت عيني الساحر الزرقاوين ووجهه يشحبان ، سحب يديه ببطء وعض بفكه الأسفل على شفته العليا ، نكست الكوبرا رأسها في السلة وغطى صاحبي كلتا الأفعيين في مقرهما الآمن المظلم . راح الروسي يلتقط أنفاسه لدقائق ثم أمسكتُ بيديه وساعدته على الوقوف . هدأ غضب من حولنا وتخلّوا عن عدائهم ، كما قدم لنا اثنان الشراب من بعض زجاجات

الصودا فاحتسينا شيئاً منها وقدمنا لهم الشكر .

عدنا وبصمت إلى الحـافلة ما عدا أصوات الخراف الصغـيرة الخائفة ، في هذا الوقت كان السيد محمود في مكان مـا وكنت قد نسيته تقريباً . لو ظفر بي الآن لاعتبرني في منتهى الجنون وفرح لخلاصه مني . كنت مجنوناً حقاً ، شيء من الجنون الخفي ، كنتُ والـروسي مصابين بالجنون إذ كيف جاء كل منا إلى مراكش .

لقد نجـح الروسي في إخفائـي عن أنظار المتربصـين بي وتحرك بخـفة عندما أصـيبوا بذهول لرؤية الأفـاعي . وقفنا سوية ، رجـلان مجنونان، يائسان بتواريخ شخصية لا نعـرفها ولسنا بحاجة إلى ذلك كان الجنون الذي يحمينا هو مصدر حـريتنا وغرابتنا . إلى أين سيذهب الروسي بعد ذلك ، إلى الدر البـيضـاء ؟ أو مـا وراء فاس أو إلى أي مكـان آخر ، لقـد كنت فضولياً حقاً .

هل سـيبـقى ساحـر أفاعي إلى الأبد ؟ هل سـيتنقل إلى حـيث يذهب سحرة الأفاعي ، بينما كنت أقشـر المزيد من البرتقال كان قد طوى جوانب السلة . بعد ذلك ، وعند ضواحي مطار الدار البيـضاء توقفت الحافلة ، أشار إليّ الروسي بالقـفز ثانيـة ، تحدثت بالقليل من الكلـمات العربـية (أخي - صديقي) ورد عليّ بجملة أو بجملتين بالروسية التي حاولت أن أقلد أصواتها .

وحين سارت الشـاحنة حاولت أن أقلد أصواتها ، وقـفت وحيداً في الطريق ثم اختفت أصوات اللغة الروسية .

14

سرتُ على امتداد الطريق الخارجي ترشدني علامات مرورية إلى مدينة نواصر . لو كان لدى شيء أعـمق من الحكمة والكتمان والعـبقرية لكنت بقيت في الحافلة ، واتجهت نحو السـاحل وغادرت في الطريق غير السالك إلى جبل طارق ، ولكني تذكـرت طنجة وصممت أن لا أمر عـبر الكمارك مـرةً ثانية ، لن أجـعل نفسـي عرضـة للإهانة مرة أخـرى وسأترك أمـري للمجهول .

شيء أبعد من المخيلة ، سلوك يمارسه الرجـال الأكثر تحضراً ، سرتُ بامتـداد قامتي في الطريق الخـارجي العريض الذي يقطع الحقـول المنبسطة غيـر الآهلة بالسكان والتي ترامت للعـيان لأميـال طويلة . أنه الجنون لكنه الطريق الوحيد للهـرب . وصلت المطار دون حدث طارىء ، أبرزت جواز سفـري الذي جلبـته مـعي ودفعت أجـرة التذكـرة إلى باريس من صكوك المسافرين الذي كانت معي ثم دخلت غـرفة الانتظار وجلست لآخذ قسطا من الراحة ، أغلقت عينيّ بذهول متجـاهلاً كل من حولي متطلعاً بالجدول الزمني للمغادرة .

كانت جلابيـتي مشبعة برائحة العـرق والخراف ، تساءلت عن مكان

الحمـام أو أية جهة أغـتسل فيـها بشيء من الماء فـقد غطى التراب شـعرى ولحيتي كذلك ملابسى والضمـادة التى كانت مصنوعه من صوف الخراف . ذهبتُ إلى غرفة كانت قد خصـصت للرجال وهناك قابلت حسن وشخص ثالث ذو بشرة داكنة . " نحن نتـسائل متى أصبـحت متسخـاً بهذا الشكل الكافى لأن تغتسل " . قـال السيد جيربوف ، لقد علمت بحـضور حسن بإشارة رأس ودية لكن الآخرين ظلوا صـامتين حذرين ، لقد أخبـر السيد جيـربوف البربر الاثنين بأن يتـركوننا وحـدنا عندها اعتـقدت [illegible] منعوا الآخرين من الدخـول . كنت على أتم اليقين منذ مدة بأن مـثل هدا اللقاء سيتم سواء هنا أو فى مكان ما حتى لو لـم يكن فى نفس المدينة .

رأيت مضيفى وهو يخرج مسدسه الآلى من سترته التويديه الإنكليزية ويمسك به مصوباً نحو رأسى ، " لقد أحرجتنى وأهنت ضيافتى بتصرفك المجنون وترحل الآن دون كلمة بعدما قضيت عـامين كاملين كأفضل ضيف لى ، أنت تعلم أنك عنيـد جداً " . كـانت الكلمة الأخـيره تافهـة وبشكل منفر لكنها تحولت فجأة إلى سخـرية . " لقد أشعرت المرأة التى اخترتها لك بالعار وكذلك أنا وهذا ما لـم يفعله أحد معى من قبل " .

" إنّى لم أهن ضيافتك ولا حتى هذه المرأة " ، أجبته بتحدٍ وأنا أحدق بوجهه ، " لقد أحسست ببالغ الترحيب منك كذلك أخذت الكثير ولكنى أحرجت نفسى وأحـرجتك معى ولم يكن لدى من خيـار سوى الرحيل" حدق بى السـيد جيـربوف بعدها بنظرةٍ غاضـبة وهو يدفع بمسدسـه بمحاذاة وجنتى ، كان يحركه بشكل طفيف من جـهة إلى أخرى ثم استقرت يده حينما كنت أطالعه ببطء وهو يضغط على الزناد .

" أخى " . . قالها فجأةً . . " أخى الصغير " .

" لم أكن أسمح لك بـالمغادره لولا ثقتى بأن خـوفك تغلب عليك ، أنت لم تعـرق ولم تومض عينيك . لماذا ؟" قلت له " هل هـذا مهم ؟» «أنت لم تعد الرجل الذى عـرفته عندمـا جئتَ إلينا للمـرة الأولى أو حتى حينما تحـدثت إليك هذا الصباح . كنت من العادة أن ترتعـد عندما تسمع كلمات رجل قاسية " .

خفض مسدسه من على وجهى ليعيده إلى جيبه إلا أنه بقى محتفظاً به فى يده.

" لقد فكرت حقاً بقتلك ، هل تعلم ، منذ اللحظة التى لم تعد فيها ضيـفى ، نعم أعلم ذلك حسناً ، أنت غـير مـرغم على ذلك مثلمـا يقول الشيخ الفرنسى " . . لم أنطق بكلمة .

" ربما سيبكوك أصدقاؤك لكنها مشيئة الله التى جعلتك ترحل " . لقد بقيت هادئاً وصامتاً ، ثم قال لى " هل تعلم أنك مسافر غريب " ، ابتسمت فى أول الأمـر . . ثم تابع ،" نعم أنت غـريب تماماً ، أنت صـاحب قلب بربرى ، أمريكى بربرى وليس فقط أمريكى ، أنت البـربرى الحقيقى ياصديقى ويا أخى الصغـير ، البربرى الأمـريكى حسناً ما فـعلت " ، أمسك على أثرها بوجهى بكلتـا يديه وقبلنى فى وجنتى ، " الآن علـيك أن تستحم فـرائحتك كريهة فـمن غير اللائق بالبربر أن يخرجوا للطـعام وهم على هذه الصورة النتنة ومن أين أتتك هذه الرائحـة ؟" "وهل يهم هذا ؟" قلتُ له . ثم عانقـنى مرةً أخرى ولكن بتـردد وكأنه كان غيـر متأكد مما فـعله كذلك بعدم سمـاحه لى بالمغادرة . تنفس بعمق ثم لمحتُ الألم فى عيـنيه عندما جلس للخلف بعدها سـار ماراً بـى ثم اندفع فاتحـا البـاب لأرى حـسن للحظات من خـلال هذه الفتحة، لوحت بيدى اليمنى لدليلى السابق والتى كانت صدى تحيته أيضا .

الجزء الرابع

15

عند وصولى إلى مطار باريس وجدت باصاً ، نقل حوائجى القديمة ماراً بالحى القـديم الذى أسكنه ، وقف على مقـربة من شارع (فـسكونتى) . لاشىء قد تغير رغم شعورى بعدم انتمائى لهذا المكان، حاولت قرع جرس باب صاحب العقار عدة مرات وبعد فترة ليست طويلة فتح الباب ، وصاح السيد " كـيدون "«أووه» . . أكدت له أننى الساكن القـديم فى الشقة التى تقع فى الطابق الرابع ، صرخ الرجل بصوت عالٍ وابتعد عنى داخل قبوه ، وحين تبعته صرخ عالياً رافعاً يده ليحمى نفسه وهو يصرخ " لا تقتلنى . . لا تقتلنى . . " توقف . . فسأل الرجـل . . " لماذا تتبعنى ؟ " فقلت له " أنا سيـبرى " ، " لكن ملابسك . . شـعرك ، لحيـتك وأنت ، كأنك تبدو مخيفاً ، لم يكن ذلك الرجل بهذه الهيئة " .

عدت لغرفتى وأشيائى الخاصة التى كانت متوفرة للآن .

" إن كنت حقاً السيـد سيبرى . . أين كنت بحق الله طيلة هذه المدة . . ؟ تبدو متوحشاً " ، أجـبته . . " لم أرحل ، ولكنى كنت فى مكان بعيد " ، وسألتـه " هل أرسلت لك أمى الإيجـار ؟ " فصرخ " نعم . . نعـم أيها الرجل الطيب . لماذا أنت بهذا الحال . . هناك الكثير من المشاكل فى العالم

الآن . هؤلاء العرب يحطمـون المدينة الجميلة ، يقتلون رجـال الشرطة فى الشوارع ، فوق أرصفة الموانىء ، نعم قرب شارعى العزيز فسكونتى ، لقد أرعبنى المشهد ، هل تريد مفـتاح غرفتك ؟" " نعم " . . ثم تركنى فى الصـالة وسار منطلقـاً يطأطىء رأسـه ويمسح عـينيه ، أريد رؤية صـديقى "كونين" ، لكنى لم أرغب فى الخروج إلى الشوارع مرة ثانية ، بقيت عند الباب أنظر إلى سـاحة البيت قرب سكلة العمـال ، والماء الذي كان يرشح من المرافق فى الخارج ، شعرت بنوبة من القـرف والضياع ، مؤمناً للحظة بأننى لم أترك المكان أبداً ، حـدقت فى البناية المهـجورة ، لم تزل تحـتفظ بهيبتها رغم الإهمال الشديد وافتقارها إلى أى ترميم ، حيث أن المدينة ذاتها كانت متصدعة ، رطبة وكأنها لا ترحب بالضيوف . عاد السيد كيدون وفى يده المفتاح ثم استـأذنته باستخدام الهاتف لاتّصل بالسـيده " كومى " أشار لى بأن الهاتف فى الصالة ثم أردف قائلاً : " لقد جاءت السيدة تسأل عنك إلا أننى لم يكن لدى أية معلومـات عنك ، لقد ظن الجمـيع بأنك ميت ، إنى حقـاً آسف لذلك ؛ لأننا كنا جـميـعاً غاضـبين منك لأنك نـسيت أن تكتب لنا لتخـبرنا عن مكان وجودك . . مـاذا كنت تفعل كل هذا الوقت ؟" لم أكن قادراً على استـعادة وسرد كل الحقائق والتفـاصيل التى مررت بها طيلة العامين السابقين والتى كانت حوالى العامين والنصف .

إن العودة إلى المكان المتهـدم جعلتنى أمتلك شوقاً عـارماً . . شعرت بالاخـتناق لذلك ، وددت أن أرحل بعـيـداً . كنت أتصـارع مع عـالمين كلاهمـا بالٍ وأردت الهرب من مفعـولها التدمـيرى المشترك ، كنت أشـعر وأشعر وعذابى يأخـذ بالازدياد ، وربما أكون فى هذه اللحظة غير مسـتفيد

من نصح حكيم أو عـاقل أو أى عمـل دون مبـرر مجـانى . أهجر عـالم الشعور والأحاسيس الذى طوقنى وقيـدنى . كل شيء يبدو مألوفاً ويعجل بانهيـارى ، زجاج النبيـذ المكسور ، شـرفة فقـدت أعمدتهـا الحديدية ، وقفص مـكسور يرشح منه الماء ، كنت هزيلاً لكننى لم أعد أشعـر بذلك والآن ، لم أكن أدرك كم كنتُ قد انسـقت بعيداً ، كـنت أغطس فى غربة غامضه ، والآن نسيت كيف امتزجت مع هذه الغربة ، رأيت الصبى وشفرة الحلاقـة بين إصبـعى رجله تقطع أخاديد فى آلة الغـزل الغليظة ، كنتُ أنا نفسى قـد قُطعت إلى أخاديد وبشكل منظم وأكـيد ، تحولت إلى مـغزل ، شخـصت لى آلة الحلاقة وكـأنها سلاح انتـحار ، ولكنها تنتـمى إلى زمان ومكان خيـاليين حيث يسـكن الصبى ذاكرتى . وهو فى الحـقيقـة ما يزال يصنع المغازل ، وأستطيع سمع صدى صـرخته ترنّ ، وصدى صوت المؤذّن وأرى الرجل الكبـير يلتقط قـشور البـيض المسلوق ، حقـاً لم أشعـر بهذا الضياع من قبـل، كانت سلسلة للحظات تعجيزية ، إنها الأمـواج الضئيلة والمستمـرة التى تقفز إلى يقظتى (مثل عودة الـسفن المتوارية) ولكنى الآن صرت مأخوذاً وكأنى ممسك بمشاعرى المتوهجـة ، بالحياة الحقيقية من تلك اللحظة ، كان شـيئاً اعتصـره ساحر الأفاعى الروسى بين أصـابعى ورفعه عاليـاً فوق رأسى ، كانت حيـاتى فى يدى ، لم تكن حياة عـابرة ؛ حيث لاشيء يمر على بعـد فى يد شخص آخر ، ، توقفت عن الشـعور بأننى لست سوى مسافر فى هذا العالم وعلىّ أن أعيش تفاصيل حياتى .

توقفت فى الساحة متفحصـاً اختفاء الضوء التدريجى وهروب الشمس بعيداً عن الأفق وتساءلتُ أين سـأذهب بعد ؟ ملأ رأسى بالأفكار ، أتصل

بالسيدة كونى " ، هل أستحم ، هل أمـضى دون هدف ، أحتسى شيئاً فى المقهى ، سرت عائداً مرة ثانية فى الشـوارع العارية، حيث يسير الغرباء وهم يجيئون ويرحلون .

ولجعل مظهرى القذر فى الجلابيـة المغربيه لا تدركه الأبصار ، فكرت أن أجلس على أرض المقهى فى حى «Ancienne Comedie» ، أخبرت النادل الذى كان يقف أمامى مرتدياً ثياب عمله حاملاً الصينية فى يد ، وفي يده الأخرى فوطة . . " عذراً . . اعطنى قدحاً من الكوكاكولا من فضلك " ، حاولت تصحيح الموقف مدركاً تشـابك الفرنسية والإنكليزية لىّ . ضحك النادل وابتعد مقهقها بشكل عال . صاح أحدهم . . " هل أنت إنكليزى؟" أجبته بأننى أمريكى ، استدرت لأسمع صوت قهقهة عالية .

كان الرجل يبدو عـربيا ولكن ليس على ما يبدو من شمال إفـريقيا ، "الناس يعـتقـدون أنك جزائرى " . . أخـبـرنى ذلك الشخص الغـريب ، "لذلك هم يحـاولون الابتعاد عـنك " ، لـم ألاحظ أن أحداً ابتـعد عنى ، "سيسخرون منك إذا عرفوا أنك أمريكى " . . " ماذا ؟ " بادرت بسؤاله ، " لأنهم يكرهون الجزائريين والعرب ، إنهم ممتلؤون بالكراهية ، ومظهرك هنا يسبب لك اللعنة ، أو يجـعل الآخرين يهمون بالابتـعاد عنك . . إذن أنت أمريكى . . فإمّا أن تكون محتـالاً أو أحمقاً " ، أجبته بنعم . . ثم عاد فسألنى . . " أيهمـا ؟ " . . قلت " أحمق " . رد علىّ . . "إنى أعتقد كذلك ، أنا اسـمى بدر . . وأنا من العراق ، إنى أحـمق كذلك " . ثم تابع . . "هل أستطيع مرافقـتك ؟ " فأومأت برأسى بالموافقة مشيـراً بكفى المفتوحة إلى الكرسى الفـارغ ليجلس بقـربى . تحرك بدر إلى الأمـام حامـلاً كأس

الوسكى فى يده ثـم قال لى " لمـاذا ترتدى هذه الملابس الوسـخـة والتى تفوح منها رائحة العرق ؟" فأشاح بوجهـه عنى مشمئزاً عندما شم رائحتى ، " كنت مع ساحر أفاعى وبعض الخـراف فى الشاحنة "، حدق بى لوهلة طويلة غير مصدقٍ كـلامى ، ثم أردف . . " هل أنت مجنون حقاً ؟ دعنى أشـترى لك بعض الشـراب" ، " لقد طلـبت قنينة من الكوكاكـولا " ، "أنت بحاجه إلى شراب حقيقى أسكتلندى على الأقل ، النادل لن يجلبها لك ، إلا أنى سأوفرها لك فهو يظنك جزائرى عديم القيمة ، شريراً فى عينيـه ، مخلوقاً رخيـصاً يتمنى لو يغـادر من هنا " ، ضحكت برغم من نظرة الحيرة فى عينيه ، " مالذى دفعك لحال كـهذا ؟" فأجبته ببساطه ، " لأنى مـجنون " ، ودهش لأنى أعـرف هـذه الكلمـة "مـجنون" . . " مجنون" . . كرر الغريب هذه الكلمة وهو يقهقه بصوت عالٍ . ثم تابع . . " كأنـك كنت تعيش فى كـهوفٍ تكونت من صـخور منحـدره مملوءة بالوحوش وقـد هزِلتَ ومرضتَ من جرّاء حـبك لليلى . . هل تعرف هذه القصة ؟ " " كلا . . لكنى أعـرف الاسم فقط " . " إذن أنت مجنون حقاً " . إن جهلى بالأدب حرمنى لذة المشاركـة فى النقاشات دون اعتبار للغة . . المجنون . . قـال بدر . . " اسمع . . المجنون كـان قد جن بحب ليلى ، بحب هذه المرأة الشابة والتى ظن أنها كـانت جميلة ؛ والتى ربما لم تكن كذلك ولكـن أباها ، ولسبب أحمق . . لم يشـأ أن يجعله صـهره ؛ لأنه كان قد أحب ابنتـه ؛ وهذا أمر محرج ؛ لأن حبه المجنون كـان أشبه بالفضيحة أو الخطيئة مهدداً جـميع الأعراف والقيم أو الأسباب التى يعرفها الله وحده . كانت ليـلى مجنونة أيضاً بحب قيس ، كـان الاثنان مصابين

بالجنون ، ياإلهى . . وهل نجد امـرأة كهذه ؟ قـد يجن أحد الطرفين كـما حصل لى " .

حدّقتُ فـيه دون رد أو تعليـق ، لكن المجنون نظم شعـراً جمـيلاً لا يكتبه إلا المجانين ، جنون الحب بالطبع ، أجـبته نعم ، يقول البعض بأن الاثنين كانا عاشـقين لله الذى ابتلى قلبيهما بهـذا العشق المجنون ، لا أحد يقـدر على الفكاك من وجد الذات الإلهـية ، كلنا أسـرى مادام الله ابـتلاه بحبه .

قلت له إنى أمـتلك هذا الشعـور ، فـأجابنى "ربما أنت تخـتلف عن الأمريكان الذين نسمع عنهم " ، سـألته على الفور " وأنت من أى نوع من العرب ؟" فـأجاب . . " عربـى غريب ، شاعـر عربى يقضى عـطلته فى باريس وعاشق أيضـاً ؛ حيث قابلت هنا فـتاة من بلجيكا تعـمل صحفـية اسمها لودنيا . . إنهـا جميلة " . . " إذن أنت مجنون " قلت له ، "نعم فإن كل من أعرفه يقول ذلك " ، " أنا أدرك ذلك بالتجربة وليس بالعقل ، فكل علاقة بالنسبة لى تنتهى باليأس ، لكنى لا أستطيع أن أبتعد عن عشق النساء ، إنى أعـشقـهنّ ، أنا مجنون لكنى لا أرافق الأفـاعى والخراف فى حافلة كما فعلت أنت . أنت مجنون حقاً ، حيث إنك أثرت عطفى أيها الأمريكى بهذه الكلمة وارتديت مـلابس يكرهها الجميع هنا " . . للوهلة الأولى اعتـقدت أن بدر على وشك البكـاء وبشكل غريب ، أمسـكت بيد العراقى الدافئة دون أن أعى مايعنى ذلك .

حدقنا بالشارع المسمّى " Ancienne Camédie " وفى صمت قفز العراقى على قدمـيه فجأةً ولوّح بيديه بعنف باتجاه الشـارع أمام المرأة الشابة

التى كانت تسير صوب المقهى ، لقد اصطدمت دون قصد بعابر سبيل وفى الزحام وبعد نظرة غاضبة لوحت " لودنيا " لبدر . . " إنها هى " ، قال لى بدر . . " جئتُ إلى هنا لأراها " ، احمر وجهه وشعر بالزهو وبنوع من الحماقة والذهول ، كنت أظن أنه على حق عندما تحدث عن النادل بسبب تلكؤ الأخير فى جلب الكوكاكولا التى طلبتها ؛ حيث ظل واقفاً قرب صندوق الدفع فى الخلف وكلاهما يحدقان ، إنهم حقاً يكرهون الجزائرى ، فكرت بهدوء مع نفسى .

بعد قبلة طويلة قال بدر للودينا وهو يعرفنى عليها ، " إنه أمريكى لا أعرف اسمه " ووقفت قائلاً : " توماس " ، ثم أجابنى بالتحية ، "مرحباً " ، فقلت له " أنت تتحدث الإنكليزية " . . فأجابنى . . " لأنى لا أجيد الفرنسية " .

كانت لودينا طويله كطول بدر ، نحيفة ، صبيانية المظهر ، لها شعر قصير بنى غامق ، عيناها واسعتان غامقتان، كانت بسيطة وساذجة ، ورغم أنى لست خبيراً بالنساء ولا أعرف عنهن مثل معرفتى بالرجال ، فى حقيقة الأمر كنت أجهل مظهر الناس مثلما أجهل تفاصيل الأدب ؛ حيث إن الاثنين ينتسبان إلى ذات التسلسل الذى لايمثل لى أية أهمية ، لم أكن أعير اهتماماً لمظهرى الخارجى "فأنا مجنون " كان التناقض واضحاً بيننا حيث أنا بجلابيتي القذرة وشعرى وكذلك وجهى ويدى المعفرتين بالتراب ، بينما كان بدر بسترتة التويدية البنية وقميصه الأبيض النظيف وربطة عنقه المقلمة كذلك سرواله الفضفاض الرمادى الفاتح ، أما لودينا فكانت ترتدى تنوره بنية اللون وبلوزة بلون بيجى مفتوحة الرقبة وسترة جلدية ، كان ذلك

في يوم السابع عشر من الشهر العاشر من عام ١٩٦٣ . . كان لقاءً لم نخطط له فيما بيننا في مدينة باريس ، قال لها بدر وبسطوة فيها شيء من الخصوصية " يقفز من مكان إلى آخر مع سحرة الأفاعي والخراف " ،ثم تساءلت لودينا " لماذا فعلت هذا يارجل ؟" لم أجبها . . ثم حثني بدر لأخبرها بالذي حصل . . قلت لها . . " حقاً لا أود التحدث " . . "ولكنك صحفية ياحبيبتي وتستطيعين أن تدفعيه إلى الكلام " ، " يهمني سماع ذلك لكنني ياحبي أفضل أن أتركه يفعل ما يرغب فيه" . سألتها . . "هل أنت من بلجيكا ؟" قالت " نعم . . من بروكسل " . . لم أزر بلجيكا ولا أستطيع التعليق على ذلك .

" لقد اتسخت ملابسه في ذلك العالم اللزج السيء السمعة ، الكريه للعرب " . . قالها بدر بنبرة غريبة . . " إن بدر سوف يكتب عنك قصيدة " ، قالت لودينا وأكملت" لقد تظاهر فقط بذلك لكي يجعلني أقابلك فالشعراء أسوأ من الصحفيين ، إنهم يحتفظون بأسرارهم لأنفسهم " . قال بدر "إنها لعوبة" ثم قبّل رقبتها وربت على رأسها وهو يقول لي إنها مثيرة . أثناء ابتعادها عن عشيقها سألتني لودينا . . " هل تكتب ؟" "لا" . . قلت لها إنني لا أقرأ الكثير ، قال بدر مقاطعاً . . " إنه يقرأ" ، وبينما جلسا يتحدثان . . بقيت أنا صامتاً .

" اسمعا . . أريد أن أقوم بشيء مجنون . . أحمق" ، قال بدر . شعرت بالتعب الشديد ، ولم يصل النادل حتى هذه اللحظة حتى بدأت أرتجف من التعب . . شعرت بالضجر .

" حسناً " قال بدر . . " ربما ليس الليلة فقد يكون غداً " ، " أريد

أن آخذ قارباً فى نهـر السين " ، "وماذا عن ذلك ؟" قلتُ له . . " هل تسألنى أنا ؟" . . فأجابنى " نعم . . نحـن الثلاثة " ، وقاطعتنا لودينا . . " لماذا نركب القـارب " . . كانت تحس بانفـعالى وتُبـعد نفـسهـا عن ذلك الاقتـراح المفاجىء وغـير المناسب ، قلـت . . " علىّ المغادرة . . أشـعر بالبرد " ، كان الأمر مـجرد عبث وغربة ، وقفنا وحيينا بـعضنا ثم تركتهم فيـما كان بدر يداعب بيـديه أذن لودينا اليمنى . عـدتُ أدراجى إلى جادة فسكونتى .

16

كنت وحيداً أياماً ولفترة طويلة ، نمتُ بعد أن ترك لى صاحب المنزل شيئاً من البسكت والحساء البارد ، أخذ الملابس القذرة ، وأخيراً ارتديت الملابس الأمريكيه تاركاً الشقة ، مشيت فى منعطف جادة بونابارت إلى مطعم " بورات " ، تناولت خليط الجبن والبيض وصحن من الخضراوات وكذلك خبزاً حاراً وقهوة داكنة ثم مشيت وقطعت الجسر خلف " نوتردام " شعرت بضعف ساقىّ وأنا أمشى علي الجسر ثم طلبتُ الشاى فى وقتها ، كنت أنا المتحدث إلى الغريب وميزتُ بدر الذى كان ينظر إلى من خلف مجموعة كثيفة من الورق كان يكتب عليها بالعربيه ، «لم يعرفنى الآخرون من مظهرى هذا .. وأنت هل عرفتنى ؟» ضحكتُ وقلتُ له .. "هل تذكر الأمريكى المعفر بالتراب " ، فتح عينيه وهو غير مصدق ، لم الاحظ من قبل أن بدر كان يبدو ساخراً مضحكاً ، وكم كانت أذنيه الكبيرتان تبدوان قبيحتين ، عيناه الصغيرتان مثل (بقّة) وفمه الأخنس .. "لا أحد يتصور هذا المخلوق غير الله " .. ضحكت وأنا أنظر إلى القناع العراقى .

وضعنا يدينا يداً بيد ولكن بقلق . ضحكنا كصديقين قديمين بعد فراق طويل ، " أين كنت .. لقد غبت عنى أسبوعين ؟ " .. قال بدر ،

فسألته " أين صديقتك لودينا ؟ " . . " أنت تذكر اسمها . . أنت أمريكى غـريب حـتى من دون التـراب " ، قلتُ له " أنت لـم تميـزنى " ، " إن ملابسك قد تغيرت الآن ، إنك تبدو كأى أمريكى غريب عدا كونك نحيفاً ، ياإلهى ، هل تريد أن تقضى على نفسك بامتناعك عن الأكل . . بالصيام ؟ أو أنك تذوى كالمجنون من الوله للمعـشوق ؟ " " أنت تذكر (ألمجنون) " أجاب بدر بحـزن تلفه الكآبة " نعم " . فسألتـه " أين لودينا إذن ؟ " قال " لقد عادت إلى بلجيكا . . أنا آسف فلديها عمل هناك " .

إن تغيـر لهجة بدر تشـير إلى شيء ما ، فلم أحـاول استجـوابه بعد ذلك .

" أنا الآن أنظم سلسلـة من القـصائد ، كل واحـده مكرسـة لامـرأة مختلفة نبذتنى " . . قـام النادل بوضع قدح الشاى ، بدأت أرتعش بصمت ، قال بدر . . " على الكاتـب أن يعيش تجربتـه ، إننى أغرم بسهـولة ، لقد نظرت إلى نظرة مـتفـحصـة فى وجهى ، فى روحى التى تـتمـرأى فيـها مشاعرى . كان لدى الكثير للتعـامل مع أشياء عديدة ترتاح إليها روحها ، والتى امتدحته كثيراً فى شعرى " .

" وإن أحببت . . يعنى أن تعوم كثيراً ، وتغرق فى الغوص فى بحار الحب العظيمة . . هل تعرف مـعنى الكلمه العربية ؟ " أطرقتُ برأسى نعم " استغراق " فأنا أعرف الكلمه . . " أنت أخى إذن " .

أخبرته بمعـرفتى فأعادتنى تلك الكلمة إلى عـالم آخر كنت قد تماثلت للشفاء منه

" أنت تعرف ما تركت فى مفكرتها (مـلاحظة إطراء قاسية ومهينة)
لروح عربية مجروحة ، كنت أستحضرها دائمافى قلبى ، أو على الأقل فى
صيـاغة النص الآخر للألم ، لقـد قالت أنها تخافنـى ، ليس بسبب عنفى
بل كما ذكرت لى . . بـسبب إخلاصى الشديد ورغبتى وحمـاسى العميق
لها . قالت . . كيف أستطيع أن أحـبك دون أن أفقد السيطرة على نفسى
كما تفـعل أنت ، وهكذا انتهى كل شىء . . وقوبلت بالرفـض مرة أخرى
بسبب اندفاعى وتهورى غير المحسوب لـكن الحقيقة الواضحة التى وقفت
وراء كل ذلك . . المديح الغريـب . . إنى قبيح جـداً. حسناً . . أين كنت
أيها الأمريكى فى هذين الأسـبوعين؟ " سألنى وهو يقطع حديثـه فجأةً ،
قلتُ " نائماً " ، " مع أهل الكهف ؟ " . . ضحكتُ وقلت «نعم» تماماً
كما نام الشاب الذى يكر فى القرآن بين أحضان الله ينتظر دعوته ليصحو . ،
تذكرت العـصا الروحـانيه للشيخ عـبر يدى لتنهـال عليها والـنافوره التى
طفحت بالماء فى الحديقة المغلقه والأطفال وهم يلعبون بالكرة ويحيطون بى
فى دائرتهم عند الإنتهاء من دروس القرآن وتذكرت " ثمر " .

" لقد كنت مرهقـاً إذن ، بعد ذلك العمل القذر مع سـاحر الأفاعى
والخراف ، معتبراً ذلك العمل أخرقاً ومجنوناً " . وبمرارة قالها بدر
" مجنون "

أجـبتـه . . " نعـم " . وتابع . . " ليس هناك عـربـى لديه تجـربة
كتجـربتك ، لقد حدث لك شىء نادر لا أعرف مـاهو بالضبط ولكنه شىء
يجعلك تغامر بحياتك لسبب غير اعتيادى ، فحياتك ليس عادية ، فللحظة
ما كنت بعـيداً عن الحب وأعتـقد أنك تستطـيع أن تفعل ذلك حقـاً عندما

تكون مجنوناً .. هذا إذا كنت تريد أن تعيش الحياة بكل تفاصيلها .. فعليك أن تصاب بالجنون " .

" أنت تعرف هذا الأمر ؟ أليس كذلك ؟ " .

" كلا " قلت له .. " لا أعرف " .

" أنظر " .. قال لى ، " أنا لست رجلاً وسيماً ، أعرف حالى ، فأنا القبيح لكننى أحب الجمال ، أتعرف ماهى الحياة ؟ فحينما نئن فنحن نعشق .. وبالرغم من تكوم روث الجمال علينا نصر في الوقت ذاته على إنسانيتنا ، إنه وبحظه السيء يرغب بعكس ذلك ، إنه الامتحان .. إنه يمتحن فينا الصبر على البرهان لأنفسنا كوننا بشر أم لا " .

" أنا عربى .. والعرب قوم لهم طبع فظ ، هل تمانع فى أن تدعوه " أيها الوقح " إنه أسوأ " .. ثم صمت معتقداً وكأنه من الصعب عليه التوقف عن التفكير بشخصٍ ما .

وتابع بدر .. " إن الله يضع شيئاً من الحكمة فى أفواه الحمقى والفقراء وكيف لى أن أعرف أكثر من ذلك ؟ " .

" إنه يوحى للأغنياء كذلك .. أن يجمعوا كنوز العالم كما هو الحال مع الماء حينما يتجمع فى دلو مثقوب ، وفى نهاية المطاف يشترك الإثنان فى قدر واحد يجمع بين الغنى والفقير .

إنى أصلى لبقائك حياً وأنت فى هذه الحالة من العتمة فيما سيأتى من حياتك .. أتعانى من الكآبة ؟ ربما ستنقذك إمرأة .. أليس بمقدورك ذلك ؟

وهل هذا مطلب صعب ؟" أجبته " إنى أعتقد ذلك " .

وتابع . . " أنت لست بإمريكى . . ولست عائداً ولن تعود إلى أى بلد . . أنت لست ببشر . . نعم أنت كذلك ، إنى أراك على هذا النحو ". لقد تصافحنا وضحكنا معاً . . واستطرد فى حديثه . . " إنى أعرفك ، أنك بشر تشبهنى ، ربما أنت تعيش للحب لكنك يجب أن تغرم بامرأة الآن ، ربما واحدة قبل أن تموت بسبب هذه الكآبة اللعينة للحياة الروتينية التى حبانا بها الله جميعاً " .

" ماذا يمكنك أن تصبح فيما بعد ؟ أستاذاً ؟ نعم . . هكذا أفضل ، حيث لا يمكنك أن تعيش فى عالم الأفاعى والخراف ، إنه سرّ من الله نفسة حين جعلك تخفى فى صدرك " حقيقتك " وكأنك كنت تبدو فى دراسة شىء ما " .

" إنى أظن أنك تمتلك فرشاة تتعامل مع القداسة أو أن لديك تجربة مسبقة كما يبدو ذلك واضحاً من وجهك " .

"كنت فى مكان يستحيل على الشعراء الوصول اليه ، إنهم يفشلون فى ذلك ، لأنهم مثلنا ، وقعنا نحن جميعاً فى فخ غرورنا ، وقعنا فى فخ غرور كلماتنا القليله التى منحتنا الحرية دائماً كنا ننتهى بمدح العالم ونريد منه أن يفعل الشىء ذاته" .

انتهيت من احتساء الشاى ، سألنى بدر . . " هل سنذهب فى الحال ؟"

" كلا . . سأبقى بعض الوقت لأننى متعب " .

" أنت بشر ، أعرف أن القداسة شيء يطمح البشر إلى معانقته ، لكنهم يدفعون ضريبة الألم القاسى للوحدة " .

" أنت بليغ يا بدر " .

" إننى أُمتدح . . وذلك ما أعيش لأجله ، " الإطراء " إن الحب ينسينى حاجتى للإطراء لفترة ، الحب هو مرشدى للقداسة . إنهن متماثلات ولدى سبعٌ ، لقد أحببت سبع نساء وكان لكل واحدة سبب مقنع لنبذى ، كنت أموت فى كل مرة ومعتقداً أنها الأخيرة حيث لن أستطيع مواجهة العالم ثانية بروح قبيحة عارية . أستيقظ على شواطىء من الخيال وأنا أجفف سيل الدموع وأعود ثانية . . أغوص فى الحب . . فى الحقيقة لقد تعبت من الحب والرومانسية . . كان الحب هو بمثابة الأمل الذى جعلنى قادراً على اجتياز العتبة للوصول إلى القداسة " .

" تعبتُ من نفسى ، تَعِبٌ ، فلن أستطيع العوم مرةً أخرى ، وهذا يخيفنى فى عدم القدرة على كتابة الشعر ثانيةً أو أن يتوقف إحساسى بالحب " .

سألته . . " هل هذه إحدى القصائد التى كتبتها عندما تطفلتُ عليك ؟ "

" أكنت تريد أن أقول لك نعم ؟ "

" أجلب لى مزيداً من الشاى الثقيل " .

قال بدر . . " الملائكه لا تشرب ولا تستحى من الثقيل . . وأنا لست ملاكاً . . ها أنت تعود إلى الحياة ثانيةً " .

قال بدر " إنى أقصد . . أيها النادل . . " كارسون " أعطنى الشاى

والكونياك " . قالهـا بالفرنسية وتابع " هذا كل ما أعـرف التحدث به فى هذه اللغة" . تبادلنا الضحك حـول الجهل ، قال لى ذلك بدر وهو يميل بجسده نحو الأمام " أصغى " ثم عادت ملامحه الشديـ ة الحادة إلى وجهه الشبيه بقناع غريب . " هل تعتقد أن ذلك هو السبب الذى يجعل الشعراء غير قادرين على تعلم اللغات بعد تجاوزهم سن الطفولة ؟ "

تساءلتُ . . " لماذا " ، مقتنعاً بالمشـاهدة والإصغاء لسيل الكلمات . فأكمل . . " لأن الشعراء حـمقى . . لقد رفضنا المبادىء الأولى ، الجنون . . والاستسلام للقداسة " .

" نحن الشعراء نؤمن أن كلماتنا هى المقدسـة ، نحن أغبياء بالملامسة ، لايمكن أن يتعلم شاعر حقيقى لغة شاعر آخـر ما لم تفقد لغته خصوصية حياتها أو أنه يحاول أن يبدو أكـثر لمعانا وبريقاً مما هو عليه ، لذلك يمكن أن تتـعلم اللغات بشكل أسـهل ، فأنت مـلتصق بلغـتك ونفسك ليـست حبيسة الكلمات . . أنت حـرٌ . يا إلهى إنى أحسدك ، لكن الجحيم أنا ، من أنا ؟ غبائى حولى وكما تقول الأساطيرفقد هبط المسيح فى الجحيم تاركاً آثار أقدامـه بين الكفره . . حـتى القلوب عزلاء وهى تضـيع مابين أشـباح تحتضـر من جراء حب ضائع " ، ثم سألـته بعفوية . . " هل هذه قـصيدة شعر ؟ "

نظر إلى بدر بخجل مفاجىء . . قائـلاً " ياصديقى لقد نسيت اسمك " ، ضحكتُ وأنا أجيبه . . " توماس سـيرى " . وتابع قائلاً . . " أعذرنى فأنا لست صاحب ذاكـرة تستـرجع الأسماء ، إنه اسم بسـيط ، ربما فليس هو تورية جيدة ، لكنه ينساب أكثر رقـة من أسمى ، ب د ر " ، أخذ يتهجأ

اسمه ، "كيف يبدو ذلك لأصدقاء راسخين ، جذور صلبة يتنفس خلالها الإله العلل الدقيقة " .

" أنت تعرف أن الله بروحه العظيمة عنما أراد أن يتنفس عظامى الساكنة ويمنحنى نفسى (الروح) ، إنى أعتقد أنه " ، ثم قاطع نفسه فجأة "ومنحنى عوضاً عن ذلك الريح" ، انفجرت على أثرها ضاحكاً ، ثم استمر . . " كنت أحمل ريح الله . . هل تعرف متى ؟" أجبته وأنا بالكاد أستطيع التحدث . . بـ "نعم"

قال بدر عندما استراح (بعد ذلك انخفضت ضحكاتنا)

وأكمل بدر : " الله نعمة " ثم قال " لقد انتهيتْ . . لكن الله يمنحنا ريحاً أخوية كهذه " .

ثم حدقنا فى وجه بعضنا ضاحكين

قال بدر . . " كم تختلف الإنكليزية عن العربية ، فتحب أن تقول كلمتين غير متصلتين (روح ، ريح) فى الواقع ليست هناك علاقه جذرية بينهما (روح و ريح) هنالك تشابه فقط " .

" حتى الطفل العربى يعرف أن الله هو أصل الاثنين " . ثم قربنا كأسينا لنشرب نخب بعضنا . . فرشفت قليلاً من الشاى الثقيل " ألقير " أما بدر فقد ارتشف الكونياك .

إنها باريس الجميلة فى المساء ، فقد كان تمازج الألوان فى السماء شيئاً رائعاً ، الأرجوانى والبرتقالى الصارخ حيث أواخر الخريف . . الذى

يدحرج الأوراق اليابسة فى الشارع والتى تركها الناس فى الهواء البارد فى نهر السين ، كل ذلك يذكرنى بالبيت ، رغم أن التشابه غير موجود إلا أننى شعرت وكأننى فى وطنى .

أعرف ماذا يعنى أن أعود بذاكرتى إلى نهر ميرلاند لكننى أفضل الإصغاء لذكرياته ، أحببت المكان فأنا سعيد بوجودى معك فى مثل هذا المقهى .. نشرب ، نضحك لكننى أنزف لفراق لودينا التى رحلت من أجل عملها فى بروكسل .

" اللعنة .. يإلهى .. مالحيلة حينما نغرق فى الحب ؟ كنت أحبها لأنها تفعل ما يحلو لها .. إننا نتبادل الحب وبأشد ما يكون عليه الحب ، خاصةً عندما نكون معاً ، لكنها ذهبت فى تلك السترة الجلدية السخيفة .. هاربة من المطر " ، ثم انهمرت الدموع من عينيه .

قلت له " إنى آسف يا بدر " ، ماداً له يدى لكى أهدئه

" كلا .. إنها حياتى ، هكذا حال بقية الأشياء ، لقد اعتدت هذا الوضع كأنى الجحيم " .

توقف .. ثم صاح مناقضاً ما قاله

" كلا ، إنى لم أعتد هذه الحال .. وكيف يمكن لشخص أن يعتاد لوجه كاذب مثل وجهى أو لروحٍ كالتى أملك " .

ابتسمت وقلت له .. " إنه فى الحقيقة وجه لم أر مثله من قبل " .

" لودينا .. لودينا " كيف أحببتك .. ثم تأوه بدر بعد ذلك .

وأكمل . . " الأوربيــة الأولى والأخيــرة التى أقع فى غرامهــا . نحيــفة ، بسيطة الملامح ، غير مثيرة كالعربيات بشفاههن الغليظة وصدرهن الممتلىء وأردافهن الضخـمة والتى يصعب على الرجل الإمســاك بهن بكلتا يديه ، يداى كبيـرتان بالرغم من أن ماتبقى من أعضــاء جسدى صغـيرة عدا أنفى وأذنى " ، مد بعد ذلك يده فى الهواء على امتداد أصابعه الناتئة العظام . . كان حقاً يبدو كشىء غريب .

كنت على وشك الضحك إلا أننى لم أفعل .

" كانت تمتلك إرادتها كـما أننى أحببت لو بقيت معـها أضم جسدها نحـوى لكى أستـمع إلى أفكارها . كانت تمتلـك صفة مـتمـيزة لا تشــابه الأخريات السبع . . التشامخ . النظرة الشـاقبة والتى لا يمكن التنبؤ بها ، كانت لا تحـتاج إلى المديح . . وغيـر سلبية . . وبـالتأكيـد هى التى كانت تصنع اللقــاء لكنهــا ربما لن تحتـفظ به ولم تفـعل ذلك، لكنها إذا فـعلت فسـتكون تماماً معك ، كأن حـبها دائماً أشــبه بالمخاطرة ، ألا تعتـقد أن تركها لى فى هذا الوقت كان عبارة عن رمز أو دلالة ؟ " .

بدأ الخوف عليه فجأةً .

قلت له . . " أنا لست بقارئ إشارات " .

" نعم أنت كـذلك . . فأنــا أصنع الكلمات . . الـكلمات للتـو . . وأنت تقرأ الإشارات . . ياإلهى . . كأننـى أموت . . لا . . لن يحصل هذا . فأنا لا أعرف شيئاً عن الإشارات أوالموت . . هذا كافٍ لى . . فأنا أعرف وأكاد أشعر به . . لقد أرسلها الله لى لتخبرنى بساعة موتى . . لكنها متى ستأتى ؟ " .

ورفعت كأسى محيياً مرة أخرى . . ورد بدر التحية بكأسه ، قال " لقد شعرت بالرعب بعدها للحظة. " وضحك باضطراب . . " لقد قلت بأنك ذكّرتَ بالوطن . . ماذا ؟ "

قلت له . . " نعم من خلال باريس " .

" هل تعلم أننى أمسك بنفسى بعض الأحيان أمام المرآة ، فى العادة فى المقهى الذى يقع فى شارع الملهاة القديمة . . أذهبْ . . أستمر ، خلفنا . . أنظر هناك مرآة أيضاً . . اذهب لترى" (ذهب وأبصر وجهه من لحظة لأخرى فى الجدار الداخلى أمام المرآة . . نظر بسرعة . . جانباً إلى نفسه) . ثم قال . . " إنها ككل المرايا الأخريات فى هذه المقاهى . . سأطل من خلال هذا الشارع على محلات الزهور والنساء العجائز منهن واليانعات وهن يصففن باقات الزهور ، ثم . . وباستدارة من رأسى كما لو أن أحداً يتحدث معى من الخلف فأرى وجهى محاطاً بباقات الزهور المنعكسة فى المرايا . دُهشتُ لدمامتى فى ضباب هذا الجمال ، أنفى الطويل وعيناى الكبيرتان ، أذناى المتهدلتان حتى شاربى يبدو متصلاً بشفتى العليا كأحد العلامات السيئة الانتشار العديدة على وجهى " .

حاولت أن أضحك إلا أنه كان وجها لشخص آخر لذا لم أضحك من الارتباك والشفقة ، ثم تصورت تجمدى هناك بين الزهور فأغلقتُ عينىّ ثم فتحتها وحدقتُ . . بدوتُ ميتاً إلا أن أحداً لم يقترب من عينىّ ثم اندهشت من شيخوختى بهذه الطريقة . . كيف سأبدو عندما أهرم ؟ أعتقد أنى سأشبه جدى الآن . . تساءلت . . هل لا يزال حياً ياترى ؟ ثم تذكرت جدتى . . كلا كان ذلك منذ أمد بعيد . . غير أنه ملأ خيالى عندما كنتُ

طفلاً ، كنتُ أحبُ كِبـر سنه وهدوءه ، لقد أحببته حيث كـان بالنسبة لى شعـاراً ورمزاً للتـحمل والهـدوء وسط البيت الذى كـان يعج بالضـجيج والهرج والمرج خصوصـاً حينما توفى طفلان صغيران لعائلتنا وهمـا شقيقى الأكبر وأختى ، اللذان ماتا بداء التيفوس ، وقاد جدى موكب التشييع إلى القبر .

كنت أؤمن بشـعره الفـضّى كـإيمانى بأى شىء ، كـذلك بأوردة يده العميقة ، أؤمن بأنفاسه ، بشـخيره ، فى هجعة المساء وبكل شىء يأخذ منه مأخذاً طويلاً حتى تبوله الطويل . . مع الماعز خارج الدار !!

أنصتّ له دون حركة ، دون تنفس كمـا كنتُ أنصتُ إلى معلم القرآن فى الكتّاب فى مدينة كاظمة فى مراكش .

قال لى بدر : " أعتقد أنك لابد أن تكون كبيراً " . كما لو كان يتلو شيـئاً من الكتاب المقـدس ولكن هذا الكلام يؤخذ مأخـذ حقيقـة ثابتة . لايتوجب عليك أن تكون كـاتباً إنما عليك أن تكون كجدّى ، صـغير السن ولايجب أن تجف عروقك ، لابـد أن تنظر كى يتضخم قلـبك إلى حجم كبير إن كان بوسعك أن تحافظ على صلات وثيقة . . لكن عليك أن تستعد لجعله صغيراً يشكل قلوباً صغيرة ، فالقلب لابد أن يكون ممتلئاً وقادراً على الفراغ كقلبه ، إنه لم يتحدث عن كل قـصص غرامه القديمة لكنه يجعلك تشعر أنك حبه الآن ، كان على الطريق ، أعزل مع حبه الوحيد ، لا أزال أفكر به وبقصـائده وأغانيه التى كـان يترنم بها دون أن يرددها أو يكتبـها له أحد . إن القصـائد والقصص القديمة والعشق القـديم لا تزال يانعة فوق شفاهه ، كنت أتشبث بعنقه مثل الوشاح كطفل حين كنت أستنشق أنفاسه ،

كان يمسح جبينى بيده وأظنه كا ن يستعيد أفكاره عندما يفعل ذلك .

وضعت أذنى على عظمة ركبته وسـمعت صوت العمر وحلمتُ غير أنى لا أظن أنى سأصل عمره والصخب الذى سمعته فى أعضائه لن يُسمع فى أعضائى ولن يمرر الأطفال أصابعهم فوق عروقى .

كنت أتساءل فيـما إذا كان يدندن أو يستـذكر أو أنه أراد أن يُقاطع أو يُسمع من قبل أحد .

«أنا بدر من قرية " جيكور " حيث لا أحد يصرف درهماً ليأتى» .

تساءلتُ إن كان يتحدث بصورة غيـر مباشرة إلىّ أو إنه يحول نبوءتهُ إلى نفسه . كان غريباً هذا الشاعر العـراقى ، شيئاً واحداً تعلمته عن نفسى فى مراكش ، وهو أنى . . وعلى مدى سنتـين كاملتين . . أغلقت هوِسى الا لكلمات كنت قد تعلمتها .

تعليقات قليلة متواضعة وتمارين فى الخط حتى جاء اليوم الذى جننت وأفقدنى الحب صوابى .

الكاتب لم يكن يثير أى اهتمام حضارى عابر بالنسبة لى ولا " المثقف " فقـد فضلت " المسافر "، " الجـوال "، " الحاج " ، إنها تبدو مناسـبة لطبيعتى وحياتى فقد حـررتنى من أية حاجة للايضاح ، كان مقدراً على أن أكون " منصـتاً " وكنت أريد فقط أن أنصـت الآن إلى هذا العراقى الذى أشعر وإياه بالسـلام . منصت . . لا أكثر ولا أقل ، وإلا فأنى غـير مرئى وليسـت لدى أية رغبة فـى أن أجد نفسـى صورة فى مرآة علـى جدارٍ فى مقهى .

قال بدر مقاطعاً فكرتي عنه ملوحاً بيده اليمنى للنادل ليملأ أقداحنا :
" مرةً كتبتُ قصيدة عن الأسباني غارسيا لوركا ولكني حين أكتب بهذه الطريقة فلابد لي أن أحلم أولاً كشاعر وكشخص وظلٍ وكصورة سلبية في الظلام وكخطٍ متعرج في ضوء وليس كثقوب سوداء .

نحن غير كاملين جميعاً ، نحن دوائر منكسرة بالطبيعة ، أقواس متداخله ، تطلق مكنوناتنا الصغيرة من الضوء الذي يربط الأصدقاء بالأصدقاء . . مع الأصدقاء عبر الزمن " .

توقف وارتشف من قدح الكونياك ، جلسنا في صمت وحدقنا في أماكن طفولتنا المخبأة في أنفسنا بعيداً عن أشجار تشرين ، وأحجار اللفندر الرمادية في باريس .

قال بدر . . " أنا أفكر في جيكور وبساتين النخيل في أبي الخصيب والقنوات التي ترتوي من مد وجزر شط العرب ومن نهر بويب ، جدولي الصغير الذي ينساب قرب بيتي ، توماس سيبري . . لابد أن أخبرك أن نهري كان جافاً لعدة سنين وبيتي عبارة عن كوخ طيني قديم خرب ، تسكن في داخله بضع دجاجاتٍ تقأقئ ، أما بعد الشعر فجيكوري " .

تذكرت النهر مرة أخرى وهو بالطبع لا يشبه جيكور ، في مراكش لم أشعر بأسى خسارة غيابه ، رغم أني افتقدته حتى أنني كنت دائم التوق له كما كان يتوق إلى جيكوره وأدركت عند سماعي كلمة " جيكور " مكررة في هذيانه . . الحنين . . أني ربما كنت في نفيٍ مؤقت ، شخص ترك وطنه وكان ضيفاً بين الغرباء وزائراً لحرمات الذاكرة والكرم والصداقة ،

مسافراً يحمل حبال خيامهم مثل " حسن " ، دليلى فى فى المدينة القديمة حين أخبـرنى أن ذلك ضمان الضيـافة وملجأ لمجرم كان قـد تجاور حدود الضيـافة ، إن ذلك ضـمانة أمن الغـريب طالما كان هناك ، كنت حـاملاً حبال خيمتى ذلك المساء مرة أخـرى وكان بدر مضيفى فى جيكور وبساتين النخيل فى أبى الخصيب ، بوسعى أن أنظر حين تكلم عن الصحراء المحيطة بنا وهى مقسـمة بالقنوات التى تمتلىء وتفرغ فى مـد وجزر شط العرب ، شعرت وكأنى فى بلدى مثل بلد قلب الصديق الذى جاءه ضيف مرحبٌ به دون أن يتوقعه فى مأمن تام .

لقد تكشف لى طريقى ، حـياتى من قبل أصدقـاء جاؤوا من أراضٍ بعيدةٍ حيث أدركوا وقبلوا عدم اكتـمالى . . تعجبت ما إذا كان قد شاطرنى بلدى وإن كان بوسـعى أن أتحدث عنه . . " توماس " أشعـر أن العالـم ، ومنذ القدم ملىء بـالحزن ، أسمع القـصائد القديمـه ، لكن فيمـا يمضى نصف الوقت بالأفكار تأن عضامى فيما تبقى من ذلك .

تحدث بدر بمزيج من الأسى وحسن الفكاهه الغريبـة والعصبية ، قال " اسمع " ، فـيما كنا مـعاً قبل فـترةٍ نحن الثـلاثة فى مقهى " أنشـيان كوميدى " . . " قلتُ أريد أن أذهب فى نـزهة نهريه " . . سألته . . " هل ذهبتَ ؟ " ، أجاب " كلا . . حاولت لكنها قالت أن ذلك أمراً تافهاً . لأن الحياة مليـئة بالجديه ، كان عملهـا مضنٍ ، حيث وقتهـا محدود وهذه الأخيره كلمة فظيعة . كى تلتقى بها هناك وقت محدد دائماً ، تماما كما لو كانت جثة لتلتـقى . . كانت تعيش ليومها وأموت يوميـاً معها ، كنا نملك الحوار فى كل وقت ، إمـا أن تبادل القبل أو الحوار ، أعلم أن ذلك غـباء

غير أنى مـضيت بالنقاش على أية حال . أعـرف ، لم أكن بحاجة إلى أن أذهب فى نزهة نهرية . . أفترض إنها رأت بأنى دائماً أود القيام بشىء غبى ، أنا الشاعر . . الشـخص الذى يمتلك الزمن ، وهى الصحفـية التى لديها زمنها المحدود دائماً ، لقد ولدتُ كى أنبذ " .

قلت . . " سبع مرات " .

قال بدر . . " اسـمع أنا لا أزال أود الذهاب الآن أكثـر من أى وقت مضى ، فالوقت أصبح أكثر برودةً وأكثر حزناً . . هل تنظم إلىّ ؟ " .

هذه المرة وافقت . . ربما لحاجتى للطيش أو بشكل أدق . . للصداقه .

17

تركنا المقـهى ومشـينا فى طريق ضيق هى " جـادة أندريه دوزارت " ولايزال بوسعى أن أراه وأسمع صـوته الحاد أحياناً والناعم أحـياناً أخرى ، إنه صوت ملح .

ياإلهى . هنا جاء هذا الجزائرى الأفاق مرة أخرى مع كلبه ال "بودل" نصف الميت ، القذر ، ابتـعدت عن الرجل عندما اندفع نحونا كـما لو لم يكن يرانا .

إن كل من يراه يبـتعـد ، أمس جلس على بعد ثلاث مـقاعـد على يمينى فى المقهى ، وكلبه بجانبه على الكرسى ، كان يزاول عمله الروتينى الغريب فى جرّ أذنى الكلب البـائس ووضع أصبعه فى شرجه ليـجعله يقفز ويكشر عن أنيابه . إنه غالـباً ما ينظر إلينا كما لو أن أحداً ما سـيعترض ، كانت لديه سكين ، أبصرته يهدد كلبه بها منتظراً تدخل الآخرين .

مضينا عبر الشارع ونـظرنا فى نوافذ المطعم والحوانيت ودكاكين الحلى . تحدث مرة أخـرى لكن هذه المره أدركتُ أنه كان يتحـدث كى لا يسمع بل ليمارس فعل الكـلام كما لو كان الأخير حالةً للتنـفس ، كان يتحدث عن

الشعر والوطن أو شيء كهذا ، كنت قد سمعته من قبل .

" قريتي مكان موحش " مكان تربتهُ لا تنبت شيئاً . . حيث لا أحد يتحدث . وحتى الشعر ممزق من الصمت . صوت ليس بوسع أحد أن يسمعه .

إن الوزن العربي الذي يمضي عبر رسم كلماته كان شقياً ، أتذكر حتى وإن كانت الكلمات تحمل نصف معنى .

لقد استطرد بالأنكليزيه إلى موضوع المال الذي يبدو وقد صرف الكثير منه في المقاهي ولم يبق منه سوى القليل .

قال . . " الشيء الوحيد الذي لا أبالي به هو المال . أنه هنا ، ثم يختفي ويأتي مرةً أخرى ، إنه ليس ملكي ولا أكتنزه بل لأفقده ، لم أجد بعد نمط الحياة الذي يمكنني من فهم فكر أي إنسان يكرس جلّ حياته للمال . الضحية حظيت بانتقامها . . والقاتل هو من أراد أن يقتل ويقتل ويقتل " .

" لكنه هل المال كافٍ لجعل هذه النار مستعرة في الإنسان "

كانت كلماته في كلا اللغتين قد أصبحت بالنسبة لي أكثر إيقاعاً من الحس وربما بالنسبة له أيضاً.

اقترب بوجهه من وجهي . " أترى تلك المرأة القادمة نحونا ؟ " قال ذلك دون أن يخفض صوته واستمر بالعربيه يروي ما كنا نراه حقاً .

" الآن أعرف أني مازلت موجوداً ، لأني في الثواني الثلاثين التاليه سأكون في سطوتها على الأقل طالما تأخذها تعبر الشارع ببنطالها " الجينز "

وقميصها المشطب قائلةً " كلا . . فتش أيضاً ، أنا أعرف ذلك " حقيبتها معلقة على كتفها وهى تضغط على ثديها الأيمن بينما مؤخرتها الصغيره منحسرة فى بنطالها " الجينز " .

"هل ستنظر إلىّ أم لأ ؟" كان صامتاً عندما مرت به . " آه . . حسنا " .

استدرنا يساراً إلى جادة أندريه دوزارت إلى ممر ضيق حيث كانت هناك علامة لفندق " فلوف " مضاءة بمصابيح خضراء صغيرة .

" فى لحظة ستمر برجلين خلف عربة وسوف أعرف أنى فى بلدى تقريباً "

فى الواقع كنا هناك وكان ذلك المكان عبارة عن ساحة مسيجة لعلب القمامة يشغلها عاملان يجلسان فى الداخل يمضغان الطعام المقدم فى طبق ورقى . قال بدر بسخرية . فى إحدى الليالى كنتُ عائداً إلى البيت وسمعت كلمة " فكّة" تقذف فى وجهى بحزن من قبل أحدهم ، وقفتُ وأعطيته بعض النقود ، فصاح الآخر فجأة بى " خراء . . عربى " ثم بال على بنطالى . لذا إما أن تسرع أو سيقولون لك " فكّة . . خراء . . أمريكى " ثم يتبولون عليك .

وقفنا أمام باب الفندق وقال أنه يريد الدخول ليجلب معطفاً يتدفأ به ليخرج بعد ذلك إلى المرفأ .

قلتُ حسناً وانتظرت أبصر الرجال بحذرٍ عبر الممر وراء الساحة بينما اختفى هو على سلم النهاية الأخرى من الممر .

كان المالك يجلس على مقعدٍ عالٍ فى مكتب الاستقبال وهو رجلٌ ضخم ذو شعر أسود منسدل ووجه متورد يضع مأزراً أزرق على خصره ، نظر من فوق جريدته إلىّ وهز برأسه ثم نظر إلى الخلف .

عندما عاد بدر عبر الممر بمعطف ، تبادل هو والمالك عبارة " صباح الخير " ثم مضينا باتجاه السين .

من بين كل الأشياء المجنونة التى كان بوسعنا أن نقوم بها ذلك اليوم ، أدركتُ ورغم فوات الأوان وكأنى قد سُحبت من قِبله إلى رغبة قديمه لرفقة فى طيش سياحى ، كان مندفعاً وكنت أكتشف ما كنت أعنى أن يتلبس بى .

حين وصلنا إلى جسر أينا المبهرج ، رأينا كل الزوارق الزجاجيه المربوطة معاً فى المرفأ ، لم يحدث شىء ، ولأول وهلة لم نبصر أحداً . نزلنا إلى الرصيف " إنه نزول إلى الآلهة " هكذا دعاه بدر حيث قدمنا إلى بيت صغير وهو ليس أكبر من كوخ شرقى على شاطىء النهر ، إنه بيت صاحب الزورق .

الذى كان ينتظرنا ليدلنا إلى «نهر الموت» ، كان بدر يسخر بالطبع ، كان الرجل يجلس فى الداخل على كرسى قرب موقد الكيروسين ويقرأ صحيفة رومانية ، تحشدنا باندفاع حيث قال شيئاً ساخراً لنا مثل " شكراً لمشارككم البيت معى " . لم يأبه بدر حيث كان للرجل صورة امرأة عارية ملصقةٌ على إحدى الجدران الخشبية ، وعلى الموقد كان يغلى بعض الماء فى إناء صغير للشاى ، هذا الرجل مجنوناً . فقد كان من المحتمل أن يحترق البيت أو ينفجر ويسممه بالدخان . " ماذا عساكم تفعلون هنا ؟

وماذا تريدون ؟ .

قال بدر بفرنسيته الركيكة " هل بوسعك أن تأخذنا إلى النهر ؟ فأجابه الرجل " الزوارق لا تذهب فهناك إضراب" .

سأل بدر " ألا يوجد ولا حتى زورق واحد ؟ "

ردّ . . " زورق واحد ؟ "

كانت وجوهنا مـتورة من لهيب الموقد ، وفجـأة بدا الرجل ميالاً إلى إكرامنا ، قال . . " هناك واحد فى نهاية الرصيف " ثم فتح الباب وأشار بإصبعه الأيسر نحو أصغر الزوارق .

"جيد " قلنا سويةً . . " حسناً . . كم يكلف ذلك ؟"

وبعد أن فكر الرجل جاءنا برقم عن الوقـود وعن وقته وعن المخاطرة التى سيـتحـملها فدس بدر بحـفنة نقود فى يده ، لم يبـتهج تمامـاً بينما ارتدى معطفه ونظر معنا إلى المرأة الـعارية التى ترافقه وجلدها الأبرش ثم قادنا إلى الزورق .

أكّد بدر لصاحب الزورق أننا لسنا بحاجـة إلى نزهة عبر العصور ولا إلى ذكريات النصب ، فنحن مسافران جاهلان قـررا أن يشاهدا بأنفسهما ما لم يشاهد من قـبل . فلا حـاجة بنا لمشاهدة البنايـة الرومانية ولا الزخـرفة الغوطية ولا فرنسية عصر النهظه ولا الفن الكلاسيكى ولا قصر الشرف ولا آثار الثورة ولا الأسلوب الميكانيكى ولا أى شىء حـديث ، نحن فقط نريد أن ندلف إلى السين معه هذا كل شىء .

كان الزورق صغيراً . عبارة عن قارب بخارى صنع ليس للسياحة بل مجرد زورق للتفتيش والوصول بسرعة إلى أى مكان بمساعدة الزوارق والجنادب السياحية ، إنه زورق بكابينة دائمة قائمه للملاح ومساحة لا تكفى أحداً ولا لشخصين آخرين .

بدت المدينة من الماء وكانها شيء من الخيال ، كأنها تنهال علينا من أرصفة المرفأ مع طوابق البناء الأرضيه التى بدت مقطوعة ، دون ذلك مددنا أرجلنا فى الماء ، قال بدر . . " هذا الشعور الذى أريده ، أى أن الماء يقوم بتدليك أرجلنا وسيقاننا فى دواماته وشوائبه الطينيه ، حاولت المحافظة على توازنى عندما قمت بتحريك قدمىّ إلى الأمام والخلف واقفاً خلف صاحب الزورق الذى كان صامتاً وقدماه ثابتتان كالصخر .

كان من الصعب أن نعرف بأى اتجاه ذهبنا حيث حدقنا بالأبراج والقباب ودرنا حول الجزر محدقين فى جدران المدينة وسكانها ، كنت مرتاباً وقلما كنت متخيلاً ، قال بدر مصراً " مدينة باردة رمادية ، وطن الأحياء ، قبر الأموات الذين يريدون أن يمرّوا من المدينة المرئية إلى مدينة غير مرئية ، يرقبون ولا يبصروني حينئذٍ أتلاشى " . قال . . " السفر مع صديق مثل "كلكامش وأنكيدو" هو خوض حكاية حقيقية من أرض الفرات ودجلة الحبيبة " .

" أعتقد وأؤمن أن كلينا راحلان ، كانت تلك هى الطريقة التى وجدها ليفصل نفسه ويفصلنى عن باريس ثم أنها وبعد كل ذلك ، لم تكن سوى مسألة اختيار الوقت " .

كنتُ هادئاً أثناء ذلك ، شعرت بالسلام داخل زورقنا، وكان هو يشاركني الشعور نفسه . كان أمراً ليس بذى أهمية ولكنه كان كذلك ، حكيماً وموجهاً .

حين نزلنا من القارب تحدث دون مبالاة عن أشياء رأيناها ، اللوفر ، نوتردام ، بيوت جزيرة سان لويس ، لقد تمتعت بثرثرته حقاً وأعتقد أنه لم يلاحظ صمتى عبر الطريق الذى سلكناه إلى موقع سياحتنا التالى .

ذهبنا إلى برج أيفل ، وفى إحدى قواعده مضينا نحو مصعد البرج وقد حملنا فى أيادينا فناجين القهوة التى أخذناها من البائع .

رغم سنواتى التى قضيتها فى باريس ، لم أصعد البرج قط كذلك هو حيث أننى كنت أتجنب الارتفاعات لكنه كان مصمماً على تجربة ذلك ، متحدثاً بجنون حيث أنه هو المسؤول فقط عن مجازفته .

قال . " إننا صديقان نخرج إلى غابة ألأرز لنقتل " همبابا" المرعب والذى يتمثل ألآن بشكل برج أيفل . ليتنا كنا نجوب العالم عبر الزمن وليس فقط ألإبحار عبر باريس فى شهر تشرين " .

ارتفعنا عالياً وكلانا سكب قهوته ، أللعنة . حين وصلنا الطابق الثانى الكبير، مشينا وهو يخبرنى بحاجته للتبول ، استدرنا حول البرج وهو يسائل ألآخرين عن مكان دورة المياه . . قال بالإنكليزية مشيراً نحوى : " إن صديقى بحاجة إلى الذهاب إلى دورة المياه " ، وحين لم يجد المكان ذهب إلى كشك لـلحلى الكاذبة بعد أن تمعن بالتذكارات القليلة باهتمام يبدو ظاهرياً ، بال إلى الجانب دون أن يلحظه بائع الكشك. قال لى . .

" إنى رجل فج . . أستقتل حتى أتبول فى مكان يحذر فيه ذلك ، لكنى ، وعلى كل حال ، صديق جيد ولست بالرجل السىء " .

بعد ذلك أمسكت بأحـد المقابض ونظرت نحو الأسفل . . قـال فجأة وهو يرتجف . . " إنى أخـاف الارتفاعـات " . . وتوسل بى للرجـوع إلى الحافه ، قلت مصـعوقاً " لماذا أردت المجىء إلى هنا ؟ " . . لم يتكلم بل جذبنى من المقبض وعدنا إلى المصعد .

فى حقيقة الأمر كنت مبتهجـاً بالعلو والشعور بالحرية وإن كان حقيقة أم خيـالاً فى حين كـان هو يخشى الاثنين حـين نزلنا ولامست قـدماه فى الأرض ، شكر بجـد الله الذى دعا إبراهيم أبـو المؤمنين أن يبنى ضريحـاً على الأرض وليس فى الهـواء ، الله ، اللـه الذى فجـر الميـاه فى الأرض وحدد الأرض المـقدسـة . . والموت ذاته . . شكراً لله على الأرض وعلى الجسد الفانى وعلى العظام وجلمـود الصخر وعلى حق اللجوء . . وشكراً على كل شىء إلا هذا" . . ويعنى برج أيفل .

تجولنا من " همبابا " الرهيب ثم ابتعدنا عن النهر وأضعنا أنفسنا فى ساحات وشـوارع أكثر أمناً . بالنسبة لأى فـرد من الذين يعرفوننى والذين سيقرأون ذلـك فى يوم ما ، فبوسعى أن أقول لهم . . إن طريقنا كـان غير مبـاشر وعينا صـديقى لاتزالان تنظران نحو الأسفل ، وشـفتاه ترتعـشان بعصبية وبـكلمات غير مفهومة ، بينمـا عيناى تنظران إلى الأعلى وشفاهى كانت مغلقة بالصمت .

قرأ أسماء الشوارع . جادة دوغـرينيل إلى اليمين ، جادة بوركَون ثم إلى اليـسار جادة دوغـرينيل ، ثم إلى اليمـين جادة دوباك حـيث أعلن أنه منهك ويحتاج للجلوس .

سألته . . " هل أنت علـى مايرام ؟" . . لقد بدا حقاً مـريضاً وكان يعرج أويجر ساقية قليلاً .

قال بعـصبيـة . . " نعم أنا تعِب . كاحلى وقـدماى . . اللعنة" . تلفتُ ووجدت لنا طريـقاً إلى الكنيسـة عبر الشـارع ، كان هذا هو الموقع الثالث فى سيـاحتنا وهى كنيسة مكرسة لشىء يدعى " الشـارة المعجزة " التى صممتها قديسـة ما وهى راهبة تدعى كاثرين لابوريه ، لا نعرف عنها شيئاً غير ذلك . إن ما يهم هو أن الكنيسـة كانت مكاناً للراحة ذات مقاعد حيث الناس يأتون ويذهـبون ، والراهبات بأغطيـة الرأس البيضـاء وكأنهن أجنحة البجع ، بينما كان الشيـوخ يحملون الشارات والمسابح لأجل التبرك وغيرهم . . آخرون .

قال بدر أن بوسعه أن يـخبرهم أن فرسانهم المتوحشـين الكبار جاؤوا بفكرة المسبحة مـنا نحن المسلمون ، لكن مافائدة إحياء الحـروب الصليبية ؟ إضافةً إلى ذلك قد نكون نحن أيضاً قد أخذناها من ناس آخرين .

دخلنا الكنيسه وجلـسنا على مسند إحدى المصاطب . . كانت الكنيـسة قد أزعجـته بأيقـوناتها وتماثيلها وألـوانها غيـر المنسجمـه . لكن الإله هو أله المسيحيين أيضاً وهو لابد أن يعرف أن هناك لحظات هلع كهذه .

بدأ الناس حولنا يرتلون مع مـوسيقى صاخبة يقـودهم شخص ما لم يتسنى لنا رؤويته .

وبعدم التـزامى . . أردت صمت الله العظيم . . وفى النهاية صـمتوا مرةً أخرى .

سألنى بهدوء . . " ماذا تعتقد ؟ "

قلت . . " عن ماذا ؟ "

" عن ذلك " . .

سالت متعمداً البلادة . . " ذلك ماذا ؟ "

" هذه الكنيسة . . هذا المكان . . كل ذلك " .

" كل ذلك ؟ "

ثم سخط منى حيث أنى لم أشأ أن أعلق كضيفٍ على أية دار للعبادة . قلت . . " حسناً " .

قال . . " حسناً ؟ ألستَ أنت مسلماً . . قليلاً على ألأقل ؟ يإلهى . . سندخل فى نقاش ، إن صداقتنا لن تدوم أزاء شىء كهذا " .

إعترفتُ . . " نعم " . . محاولاً تجنب ذلك . . " لكنى كمسلم لابد من احترام عبادة ألآخرين حيث أنهم يقدسوا ربّ المؤمنين وصديق ألأصدقاء " .

ابتسم كما لو أنه أدرك أننى مجرد شاب ساذج أو يريد التملص دون محاولة ألإساءة إليه .

" هل تعرف أن هناك جسدان قرب المذبح فى ألأمام ؟ صدقنى لقد رأيتهما حين دخلت " . كان يحشنى هذا العربى المشاكس وشعرت بالغثيان .

قال ، وبإصرار : " حقاً كانت هناك صور خارج جسدىّ الراهبات عند المذبح " .

قلتُ . . " جثث ؟ " بدأت بالانكماش والتمارض ، كان هناك حشد من الناس قد تشكل على جميع جوانب المذبح وهى تحدق ، كنت متردداً لكنه أصر ، شعرت بعدم الراحة وأنا أقترب من الموتى المعروضين للنظر ، كنتُ قد عرفت من زيارتى للنوتردام أن المسيحيين كانوا يحتفظون بمفاصل العظام وعظام الساق والشعر كآثار مقدسه للقديسين لكنى لم أكن أعرف أنهم يحتفظون بأجساد الراهبات العجائز خلف الزجاج .

سرنا فى خط على يسارالكنيسه ومررنا بتابوتين ذى جانبين زجاجيين ، نظرت خلالها برعب ثم أغمضت عيناى لدهشة صديقى ، الراهبتان العجوزان بدتا حقيقيتان وبدى جلدهما حقيقياً لكنه عولج بطريقة غير طبيعيه ، تساءلت فيما إذا كانتا قد اشتاقتا إلى قبريهما ، فيالرهبة وعدم وقار عدم دفنهما ، فاللحم الذى يشيخ يرغب بالموت والتوارى ، هكذا ما كنت أعرف أو أؤمن غريزياً ، لم يكن منظراً سعيداً لكننى شعرت بالإشمئزاز أكثر من الحزن وعندما عدنا إلى مقعدنا أو ربما إلى مقعدٍ آخر حيث أن مقاعدنا قد شغلت من قبل آخرين .

صليتُ لأجل ستار يوضع فوق الجثث ، أجل إلى ستار ، إلى احترام لتواضعها ، شعرت بالأسى للقديسات اللاتى بدت وجوههن تعبه وغير سعيدة بسبب هذا العرض . لكن ياترى ماذا كان يعتقد صاحبى العربى ؟ فنحن لم نتكلم عن ذلك حينما خرجنا ومضينا إلى حى أنشيان كوميدى التى نعرفها جيداً .

18

كما شعرت ذلك اليوم فإن كلينا سيغادر باريس ، التقينا لأوقات قليلة مرة أخرى ولكن بصورة موجزه تحدث خلالها عن الشعراء الأمريكان الذين شعر بالصلة الروحية معهم ، قال . . ت.س. إليوت والأرض اليباب كذلك الرباعيات العظيمة ، ثم قبلة أميلى دكنسن وهرمان ميلفل من مساجوستس ، ربما سأذهب هناك ذات يومٍ وأكتشف لنفسى' .

قلت له عندئذ . . ' ربما سأذهب أنا إلى قريتك جيكور ذات يوم ' . كنت متأكداً أنه يعرف الكثير عن الشعراء وعن مساجوستس وعما نفعله ولا نفعله أكثر منى . عند هذه النقطة . . كانت جيكور اسماً سحرياً على شفتيه .

سألنى . . ' متى ستذهبُ إلى بلدك ؟ ' .

قلت ' حالاً . . وأنت ؟ '

' حالاً ' .

يبدو أن ذلك قد أنهى كل شيء .

أخبرته عن تجربة النهر عبر القصب وأخبرنى . . ' لابد لك أنت

تلتقى الرجل العجوز مرة أخـرى وتتعلم كيف تتعلق برجليك بالمقلوب . .
قلت . . «كان ذلك قبل خمسة عشر سنة . وربما قد مات الآن " .

" إنه لايزال يعيش فى قلبك " .

" مثل جدك الذى يحيا فيك " .

قال . . " نعم " .

كان مساؤنا الأخير معاً بعد أن أنهينا ملاحتنا الكبيره فى مقهانا المفضل ، جادة Ancienne Comedie . . مشـينا على طول جادة أندريه دوزارت إلى نهر السـين ، جلسنا لبعض الوقت على مصطـبة قرب كنيسـة القديس جوليان لبـوفر . لم أدهش كثيراً بما سـألت لكننى قد انتظرت طويلاً لكى أسأل أى شخص . . فسألته . . " ماعساى أن أفعل بحياتى ؟ "

كان مندهشاً أيضاً . هكذا اعتقدت من صمته العميق .

" أنا لست رجلاً حكيماً كـما تعرف ، إن الله لم يخلقنى كى أنصح البشر مما يبرهن على حكمة الـله . . لكنى نوعاً ما . . أظن وكأنى أعرفك ياصديقى ، أعـتقد أنك تشـبه المساكين الجـوالين الفقراء عندنا ، فـها أنت متصالح مع نفسك إن لم تكن سعـيداً لوحدك . أشبه بناسكٍ أو شىء على هذا النحو بالنسبة للآخرين .

إنك مسافـر عبر العالم ، ضيـف ، صديق ، شـخص يعيش بصمت وليس إنسـاناً يجادل . . ربما تكون شـاهداً على شىءٍ ما ، أليس بوسـعى مساعدتك أكثر مما أفعل الآن ؟ "

لم أجب رداً على ذلك

فى الصبح ، كان على بدر المغادرة قبل يوم من رحيلى فأصررت على توديعه فى المطار ، كان مسروراً لكن مرتبك ، ركب المترو إلى منطقة أيروكار أو أنفاليد بصمت نسبى وسط الجمهرة المنطلقة ساعة إنتهاء الدوام الصباحية من يوم الإثنين المعتاد . كانت سفره طويلة حافلة وشاقة ومملة من المدينة إلة مطار أورلى .

قال . . " طويلة هى الرحلة التى خلفناها ورائنا كذلك تلك التى أمامنا كما قال شعراؤنا الأقدمون . . لقد تحدث عن " الركوب فى ظل طريق الشمس العراقى القديم " وظننت أنه بدأ يتأمل عودته إلى جيكور .

وفى المطار وقفنا فى مكان ليس ببعيد لكنه كان مناسباً للحصول على مقعد فى صالة المدخنين حيث لم يكن قد تحرر من المتعة والألم بعكسى تماماً حيث أنى لم أدخن طيلة حياتى .

وبعد أن اجتزنا الجمارك صعدنا السلم ونظرنا إلى الطائرات من خلال نافذة زجاجية هائلة .

إن مصاحبتى إياه لم تكن لتأخذ طابعاً احتفالياً بل إنها أصبحت مناسبة عندهما أهدانى كتاباً يتضمن قصائده بالعربية. أخبرنى أنه كتاب يمثل روحه بعد أن وقعه بالعربيه . . إلى بن توماس ، صديقى العزيز . . " بدر " .

تأثرتُ بعمقٍ لكنى لم أكن أمتلك شيئاً لأمنحه مقابل ذلك .

فأنا الشاب الذى لم يكتب أو يحقق شيئاً بعد ، مسك كتفى بقوة وهو يعانقنى قبل أن يحين وقت نزوله إلى الممر ليدخل الطائرة .

قلتُ له . . " بدر . . اهمس باسمى عندما تقف قرب جيكورك " . . فقال بغمزةٍ " وأنت افعل الشىء ذاته عندما تتعلق بالمقلوب " .

راقبت الطائرة وهى تقلع ثم عدتُ مدركـاً أنه كان يتعين علىّ أن أبدأ حياتى مرةً أخرى كما لو أننى لم أبدأها أبداً .

كانت الرحلة إلى باريس بالباص طويلة ومملة . كنتُ أتطلع مرةً أخرى إلى طريق الشمس .

الخاتمة

زرت العراق وبالذات قرية جيكور ولكن بعد سنوات عدة وبالتحديد تشرين الأول (اكتوبر) عام ١٩٨٧

كان بدر الذى مات فى مستشفى فى الكويت بعد صراع طويل مع مرض السل عام ١٩٦٤ ، قد كرم كواحد من أعظم الشعراء المعاصرين فى العراق حيث أقامت الحكومة له تمثالا بحجم كبير ثبت فوق منصة تطل على شط العرب ملتقى الفرات ودجلة .

كانت أذنا بدر كبيرتين وشفتاه غليظتين وعيناه جاحظتين ، ولو نهض من إغفاءته الطويلة فى قبره لكان يكيل اللعنة على تكريم كهذا .

كنت قد تسلمت فى حينها دعوة ، وجهت لى لإزاحة الستار عن النصب لأن من بين كتبه كان «دفتر مذكرات» فى باريس والتى ذكرنى فيها كصديق مقرب له .

جمعت أجرة السفر حيث قمت برحلة ذكرت فيها اسمه لشواطىء ميرلاند وفى المنطقة التى يلتقى فيها نهرا جوتبالك وتويجاهو .

لم يكن هناك نصب يقام بل كانت هناك أصوات تسمع . ومازال تسمع .

المشروع القومي للترجمة

اللغة العليا (طبعة ثانية)	جون كوين	ت أحمد درويش
الوثنية والإسلام	ك. مادهو بانيكار	ت أحمد فؤاد بلبع
التراث المسروق	جورج جيمس	ت شوقي جلال
كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنكوفا	ت أحمد الحضري
ثريا في غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت محمد علاء الدين منصور
اتجاهات البحث اللساني	ميلكا إفيتش	ت سعد مصلوح / وفاء كامل فايد
العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	ت يوسف الأنطكي
مشعلو الحرائق	ماكس فريش	ت مصطفى ماهر
التغيرات البيئية	أندرو س. جودي	ت محمود محمد عاشور
خطاب الحكاية	جيرار جينيت	ت محمد معتصم وعبد الجليل الأزدي وعمر حلي
مختارات	فيسوافا شيمبوريسكا	ت هناء عبد الفتاح
طريق الحرير	ديفيد براونيستون وايرين فرانك	ت أحمد محمود
ديانة الساميين	روبرتسن سميث	ت عبد الوهاب علوب
التحليل النفسي والأدب	جان بيلمان نويل	ت حسن المودن
الحركات الفنية	إدوارد لويس سميث	ت أشرف رفيق عفيفي
أثينة السوداء	مارتن برنال	ت لطفي عبد الوهاب / فاروق القاضي / حسين الشيخ / منيرة كروان / عبد الوهاب علوب
مختارات	فيليب لاركين	ت محمد مصطفى بدوي
الشعر النسائي في أمريكا اللاتينية	مختارات	ت طلعت شاهين
الأعمال الشعرية الكاملة	جورج سفيريس	ت نعيم عطية
قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت يمنى طريف الخولي / بدوي عبد الفتاح
خوخة وألف خوخة	صمد بهرنجي	ت ماجدة العناني
مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت سيد أحمد علي الناصري
تجلي الجميل	هانز جيورج جادامر	ت سعيد توفيق
ظلال المستقبل	باتريك بارندر	ت بكر عباس
مثنوي	مولانا جلال الدين الرومي	ت إبراهيم الدسوقي شتا
دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت أحمد محمد حسين هيكل
التنوع البشري الخلاق	مقالات	ت نخبة
رسالة في التسامح	جون لوك	ت منى أبو سنه
الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ت بدر الديب
الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	ت أحمد فؤاد بلبع
مصادر دراسة التاريخ الإسلامي	جان سوفاجيه - كلود كاين	ت عبد الستار الحلوجي / عبد الوهاب علوب
الانقراض	ديفيد روس	ت مصطفى إبراهيم فهمي
التاريخ الاقتصادي لإفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	ت أحمد فؤاد بلبع
الرواية العربية	روجر آلن	ت د. حصة إبراهيم المنيف

الأسطورة والحداثة	پول . ب . ديكسون	ت خليل كلفت
نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	ت حياة جاسم محمد
واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	ت جمال عبد الرحيم
نقد الحداثة	آلن تورين	ت أنور مغيث
الإغريق والحسد	بيتر والكوت	ت منيرة كروان
قصائد حب	آن سكستون	ت محمد عيد إبراهيم
ما بعد المركزية الأوربية	بيتر جران	ت عاطف أحمد / إبراهيم فتحى / محمود ماجد
عالم ماك	بنجامين باربر	ت أحمد محمود
اللهب المزدوج	أوكتافيو پاث	ت المهدى أخريف
بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلى	ت . مارلين تادرس
التراث المغدور	روبرت ج دنيا - جون ف أ فاين	ت أحمد محمود
عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	ت محمود السيد على
تاريخ النقد الأدبى الحديث (١)	رينيه ويليك	ت مجاهد عبد المنعم مجاهد
حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ت ماهر جويجاتى
الإسلام فى البلقان	هـ . ت . نوريس	ت عبد الوهاب علوب
ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	ت محمد برادة وعثمانى الميلود ويوسف الأنطكى
مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانويبا وخ. م بينياليستى	ت محمد أبو العطا
العلاج النفسى التدعيمى	بيتر . ن . نوفاليس وستيفن . ج . روجسيفيتز وروجر بيل	ت لطفى فطيم وعادل دمرداش
الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	ت مرسى سعد الدين
المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	ت محسن مصيلحى
ما وراء العلم	چون بولكنجهوم	ت على يوسف على
الأعمال الشعرية الكاملة (١)	فديريكو غرسية لوركا	ت محمود على مكى
الأعمال الشعرية الكاملة (٢)	فديريكو غرسية لوركا	ت . محمود السيد . ماهر البطوطى
مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	ت محمد أبو العطا
المحبرة	كارلوس مونييث	ت : السيد السيد سهيم
التصميم والشكل	جوهانز ايتين	ت صبرى محمد عبد الغنى
موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور - سميث	مراجعة وإشراف محمد الجوهرى
لذّة النّص	رولان بارت	ت . محمد خير البقاعى .
تاريخ النقد الأدبى الحديث (٢)	رينيه ويليك	ت مجاهد عبد المنعم مجاهد
برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	ت رمسيس عوض .
فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	ت رمسيس عوض .
خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	ت عبد اللطيف عبد الحليم
مختارات	فرناندو بيسوا	ت . المهدى أخريف
نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	ت أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	ت عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد

السيدة لا تصلح إلا للرمي	داريو فو	ت : حسين محمود
السياسي العجوز	ت . س . إليوت	ت : فؤاد مجلي
نقد استجابة القارئ	چين . ب . توميكنز	ت : حسن ناظم وعلي حاكم
صلاح الدين والمماليك في مصر	ل . ا . سيمينوڤا	ت : حسن بيومي
فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	ت : أحمد درويش
چاك لاكان وإغواء التحليل النفسي	مجموعة من الكتاب	ت : عبد المقصود عبد الكريم
تاريخ النقد الأدبي الحديث ج ٣	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	ت أحمد محمود ونورا أمين
شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكي	ت . سعيد الغانمي وناصر حلاوي
بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	ت مكارم الغمري
الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	ت : محمد طارق الشرقاوي
مسرح ميجيل	ميجيل دي أونامونو	ت : محمود السيد علي
مختارات	غوتفريد بن	ت خالد المعالي
موسوعة الأدب والنقد	مجموعة من الكتاب	ت . عبد الحميد شيحة
منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكي أقطاي	ت : عبد الرازق بركات
طول الليل	جمال مير صادقي	ت · أحمد فتحي يوسف شتا
نون والقلم	جلال آل أحمد	ت ماجدة العناني
الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	ت · إبراهيم الدسوقي شتا
الطريق الثالث	أنتوني جيدنز	ت . أحمد زايد ومحمد محيي الدين
وسم السيف	ميجل دي ترياتس	ت . محمد إبراهيم مبروك
المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربر الاسوستكا	ت محمد هناء عبد الفتاح
أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكي المعاصر	كارلوس ميجل	ت نادية جمال الدين
محدثات العولمة	مايك فيذرستون وسكوت لاش	ت عبد الوهاب علوب
الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	ت فوزية العشماوي
مختارات من المسرح الإسباني	أنطونيو بويرو باييخو	ت . سري محمد محمد عبد اللطيف
ثلاث زنبقات ووردة	قصص مختارة	ت إدوار الخراط
هوية فرنسا	فرنان برودل	ت بشير السباعي
الهم الإنساني والابتزاز الصهيوني	نماذج ومقالات	ت أشرف الصباغ
تاريخ السينما العالمية	ديڤيد روبنسون	ت إبراهيم قنديل
مساءلة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	ت إبراهيم فتحي
النص الروائي (تقنيات ومناهج)	بيرنار فاليط	ت . رشيد بنحدو
السياسة والتسامح	عبد الكريم الخطيبي	ت . عز الدين الكتاني الإدريسي
قبر ابن عربي يليه آياء	عبد الوهاب المؤدب	ت محمد بنيس
أوبرا ماهوجني	برتولت بريشت	ت : عبد الغفار مكاوي
مدخل إلى النص الجامع	چيرار چينيت	ت : عبد العزيز شبيل
الأدب الأندلسي	د. ماريا خيسوس روبييرامتى	ت د. أشرف علي دعدور

صورة الفدائى فى الشعر الأمريكى المعاصر – نخبـة – ت محمد عبد الله الجعيدى
ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسى – مجموعة من النقاد – ت محمود على مكى
حروب المياه – چون بولوك وعادل درويش – ت هاشم أحمد محمد
النساء فى العالم النامى – حسنة بيجوم – ت منى قطان
المرأة والجريمة – فرانسيس هيندسون – ت ريهام حسين إبراهيم
الاحتجاج الهادئ – أرلين علوى ماكليود – ت إكرام يوسف
راية التمرد – سادى پلانت – ت أحمد حسان
مسرحيتا حصاد كونجى وسكان المستنقع – وول شوينكا – ت نسيم مجلى
غرفة تخص المرء وحده – فرچينيا وولف – ت سمية رمضان
امرأة مختلفة (درية شفيق) – سينثيا نلسون – ت نهاد أحمد سالم
المرأة والجنوسة فى الإسلام – ليلى أحمد – ت منى إبراهيم ، وهالة كمال
النهضة النسائية فى مصر – بث بارون – ت لميس النقاش
النساء والأسرة وقوانين الطلاق – أميرة الأزهرى سنبل – ت بإشراف/ رؤوف عباس
الحركة النسائية والتطور فى الشرق الأوسط – ليلى أبو لغد – ت نخبة من المترجمين
الدليل الصغير فى كتابة المرأة العربية – فاطمة موسى – ت محمد الجندى ، وإيزابيل كمال
نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان – جوزيف فوجت – ت منيرة كروان
الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية – نينل الكسندر وفنادولينا – ت أنور محمد إبراهيم
الفجر الكاذب – چون جراى – ت أحمد فؤاد بلبع
التحليل الموسيقى – سيدريك ثورب ديڤى – ت سمحه الخولى
فعل القراءة – ڤولفانج إيسر – ت عبد الوهاب علوب
إرهاب – صفاء فتحى – ت بشير السباعى
الأدب المقارن – سوزان باسنيت – ت أميرة حسن نويرة
الرواية الاسبانية المعاصرة – ماريا دولورس أسيس جاروته – ت محمد أبو العطا وآخرون
الشرق يصعد ثانية – أندريه جوندر فرانك – ت شوقى جلال
مصر القديمة (التاريخ الاجتماعى) – مجموعة من المؤلفين – ت لويس بقطر
ثقافة العولمة – مايك فيذرستون – ت عبد الوهاب علوب
الخوف من المرايا – طارق على – ت طلعت الشايب
تشريح حضارة – بارى ج. كيمب – ت أحمد محمود
المختار من نقد ت. س. إليوت – ت. س. إليوت – ت ماهر شفيق فريد
فلاحو الباشا – كينيث كونو – ت سحر توفيق
مذكرات ضابط فى الحملة الفرنسية – چوزيف مارى مواريه – ت كاميليا صبحى
عالم التليفزيون بين الجمال والعنف – إيڤلينا تارونى – ت وجيه سمعان عبد المسيح
النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس – عاطف فضول – ت أسامة إسبر
حيث تلتقى الأنهار – هربرت ميسن – ت أمل الجبورى

(تحت الطبع)

الشعر الأمريكي المعاصر
الجانب الديني للفلسفة
الولاية
المدارس الجمالية الكبرى
الإسكندرية . تاريخ ودليل
مختارات من الشعر اليوناني الحديث
بارسيفال
اثنتا عشرة مسرحية يونانية
العلاقات بين المتدينين والعلمانيين في إسرائيل
عدالة الهنود
جان كوكتو على شاشة السينما
الأرضة
غرام الفراعنة
نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية والقوانين المعالجة
القصة القصيرة (النظرية والتقنية)
صاحبة اللوكاندة
التجربة الإغريقية
حركة الاستعمار والصراع الاجتماعي
العنف والنبوءة
خسرو وشيرين
العمى والبصيرة (مقالات في بلاغة النقد المعاصر)
وضع حد
التليفزيون في الحياة اليومية
أنطوان تشيخوف
من المسرح الإسباني المعاصر
خطبة الإدانة الطويلة
تاريخ النقد الأدبي الحديث (الجزء الرابع)
حكايات ثعلب
شامبوليون (حياة من نور)
الحورية الهاربة
الإسلام في السودان
العربي في الأدب الإسرائيلي
آلة الطبيعة
ضحايا التنمية
المسرح الإسباني في القرن السابع عشر
أيديولوجي
تاريخ الكنيسة
فن الرواية
ما بعد المعلومات
الورقة الحمراء
موت أرتميد كروث
علم الجمالية وعلم اجتماع الفن
المهلة الأخيرة
الهيولية تصنع علماً جديداً
قضايا التنظير في البحث الاجتماعي
مدرسة فرانكفورت نشأتها ومغزاها

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ٨٥٣٧ / ١٩٩٩

الترقيم الدولى (I. S. B. N. 977 - 305 - 26 - 9)

Where The Rivers Meet
by Herbert Mason

« خسارات السياب وصداقة أنكيدو »

يكتتشف القارئ لهذا العمل صفحة مجهولة من حياة الشاعر العراقى المعروف بدر شاكر السياب، الشاعر الذى حطم أغلال القصيدة العربية وخرج بها إلى شكلها الحر ليكون حقاً الرائد الذى أخرج من غابة الشعر العربى قصيدته الحديثة.

لقد وجد الكاتب تماثلاً بينه وبين روح السياب الهائمة محاولاً الغوص بمجاهيل اللغة وسحر الأسطورة التى صاغها بدر من رموز بيئية حتى تحول «بويب» إلى نهر الحنين «وجيكور» إلى يوتوبيا سياسية.

فى هذا العمل نلامس بقوة بعضا من أفكار بدر، هذيانه اليقظ الذى أختبأ فى نصه الشعرى، خساراته، نساءه اللواتي أشفقن عليه أكثر مما أحببنه. وهنا خيال خصب أراد به الكاتب أن يصف ذاته عبر السياب الذات الجوالة، المغامرة، المنكسرة، الساخطة، ورغبة هذا الغربى المسكون بالشرق بالغوص فى أماكن محظورة من حياة شاعر التقت فى جسده وروحه أحزان العالم.

لكن الخلود رغم مرارة ما مر به سعى إليه دون أن يطارده هو، كما فعل جلجامش من قبل، وظل ميسن - أنكيدو صديق السياب، أخاه فى الوحده والغربة، والخيال الذى ابتلعه الموت أمام طعنة المرض عند حافه الألم.

